الفصل الخامس

خلافته وسياسته

١ – مبايعته بالخلافة

سيطر الحزن على الوليد فى آخر خلافة هشام ، وطال به القلق ، واستبدَّ به الذُّعْرُ ، وأصابه اليأس ، حتى زهد فى الملك ، فقد أشقاه بغى هشام وظلمه ، وبرَّح به حَجْزُ العطاء عنه وروَّعه وأذَلَّه ، وكان مُتَأَبِّداً بالأزرق جنوبى عمان من الأردن ، بعيداً عن الرصافة ، لا يدرى ما يُرادُ به فيها ، لانقطاع الأخبار عنه ، بعد حَبْس هشامٍ لعياضِ بنِ مسلمٍ كاتبِ الوليد الذى كان يبعث إليه بما يُدَبِّرُ لَهُ فى قصر الرصافة ، فكان الوليد مَهِيناً جاهلاً بما يمكن أن تُفَاجِئه به الأيام ، مُسْتَسْلِماً لهشامٍ ، عاجزاً عن مقاومته إذا أَقْدَمَ على خلعه ، وبايع لمسلمة بن هشام بالخلافة . ويصور المدائنى اضطراب الوليد وحيرته وانهياره وما خالطه من الأسى والشك قبل وفاة هشام بقليل ، حتى إنه لم يُصَدِّق حين وفد عليه البشير بالخلافة أن القدر أنقذه من هشام ، وأن الأمر صفا له ، فيقول : « لم يزل الوليد مقيماً فى تلك البَرِيَّةِ حتى مات هشام . فلما كان صبيحة اليوم الذى جاءته فيه الخلافة ، أرسل إلى أبى الزبير المنذر بن أبى عمرو[1] ، فأتاه فقال له : يا أبا الزبير ، ما أَتَتْ عَلَىَّ ليلةٌ منذ عَقَلْتُ عقلى أطول من هذه الليلة ، عرضت لى هموم ، وَحَدَّثْتُ نفسى فيها بأمورٍ من أمر هذا الرجل الذى قد أولع بى – يعنى هشاماً – فاركب بنا نَتَنَفَّس . فركبا فسارا ميلين ، ووقف على كثيب ، وجعل يشكو هشاماً إذ نَظَرَ إلى رَهجٍ فقال : هؤلاء رسل هشام ! نسأل الله من خيرهم ، إذ بَدَا رجلان على البريد مُقْبِلان ، أحدهما مولىً لأبى محمد السفيانى ، والآخر جَرْدَبة . فلما قَرُبَا أتيا الوليد ، فنزلا يَعْدُوان حتى دَنَوا منه ، فَسَلَّما عليه بالخلافة ، فَوَجَم ، وجعل جردبة يُكَرِّرُ عليه السلام بالخلافة فقال : ويحك ! أمات هشام ! قال : نعم ، قال : فمن كتابك ؟ قال : من مولاك سالم بن عبد الرحمن[2] ، صاحب ديوان الرسائل . فقرأ الكتاب وانصرفا »[3] .

---

(١) هو من كتاب الوليد بن يزيد . (انظر الأغانى ٧ : ١٥) .

(٢) يذكر البلاذرى فى أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٦ ، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٥٥ ، أنه سالم بن عبد الله ، ويشير ابن عساكر أن أباه قد يسمى عبد الرحمن . وقلما نص القدماء على اسم أبيه ، فهم ينسبون سالماً إلى هشام بن عبد الملك ، فيقولون : سالم مولى هشام . (انظر البيان والتبيين ١ : ٢٤٨ ، والوزراء والكتاب ص : ٦٢ ، والفهرست ص : ١١٧ ، ١٢٥) .

(٣) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٥ ، وانظر أنساب الأشراف مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٦ ، والأغانى ٧ : ١٥ .

ويختلف القدماء فى مسير الوليد إلى الرصافة وحضوره دفن هشام ، أما اليعقوبى فيروى ما يفيد أنه لم يذهب إلى الرصافة ولم يشارك فى جنازة هشام ، وأن العباس بن الوليد بن عبد الملك أو الأبرش الكلبى صَلَّى عليه[٤] ، فى حين يذكر ابن شاكر الكتبى أن مسلمة بن هشام صَلَّى على أبيه[٥] . وأما خليفة بن خياط ، وهو أقدم من اليعقوبى ، ورواياته أوثق من روايات اليعقوبى وأدق ، فيحمل عن شيوخه أن الوليد بن يزيد صلى على هشام[٦] ، وتابعه فى ذلك ابن كثير[٧] ، وأضاف صاحب الإمامة والسياسة أن الوليد استؤذن فى إقباله ، فلم يُدْفَنْ هشام حتى قدم الوليد فى ثلاثة أيام[٨] .

ولما فَرَغَ الوليد من دفن هشام بالرصافة ، رجع إلى دمشق[٩] ، فتسابق عمال الولايات فى إعلان ولائهم له ، ودخولهم فى طاعته ، وأَمَّتْ قصره وفود الأمصار ، وجاءته البَيْعةُ من الآفاق[١٠] . ومن كتب العمال التى أرسلوها إليه مُهَنِّئين ومُؤَيِّدين كتاب مروان بن محمد ، عامل أرمينية ، وفيه يقول : بارك الله لأمير المؤمنين فيما صار إليه من ولاية عباده ، ووراثة بلاده . وقد كانت سَكْرَةُ الولاية غَشِيَتْ هشاماً ، فَصَغَّرَ ما عَظَّمَ الله من حق أمير المؤمنين ، ورام من الأمر المُسْتَصْعب عليه ، الذىَ أجابه إليه المدخولون فى آرائهم وأديانهم ما حال الله بَيْنَه وبينه ، فَزَحَمَتْه الأقدار عنه بأشَدِّ مناكبها ، وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى أَلْبَسَهُ أكرمَ لباس الخلافة ، فنهض مُسْتَقِلاً بما حمله .

فالحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لخلافته ، وخَصَّهُ بوثائق عُرَى كرامته ، وذَبَّ عنه ما كَادَهُ الظالمون فيه ، فَرَفَعَهُ ووَضَعَهُمْ ، وأَعَزَّهُ وأَذَلَّهُمْ ، فمن أقام منهم على الخطيئة أَوْبَقَ نَفْسَهُ ، وأَسْخَطَ رَبَّهُ ، ومن عَدَلَتْ به التَّوْبَةُ نَازِعاً عن الباطل إلى الحق ، وَجَدَ الله تَواباً رحيماً .

وإنى نهضت إلى منبرى ، فأعلمت من قِبَلى من المسلمين بما امتَنَّ الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين ، فاستَبْشَروا بِبَيْعَتِهم ، وقد بَسَطْتُ يدى لِبَيْعَةِ ، فَوَكَّدْتُها عليهم بالوثائق والعهود ، وتَغْلِيظِ الأيمان ، فكلُّ الناس حَسُنَتْ إجابَتُهُ وطاعتُهُ ، فَأَثِبْهُم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذى آتاك ، فإنك أَجْوَدُ الناس جُوداً ، وأَبْسَطُهم يداً ، فقد انتظروك راجين ، فَنَلْهُمْ بِفَضْلِكَ ، وأَوْسِعْ

---

(٤) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٢٨ .

(٥) عيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ ، حـ ٥ ، الورقة : ١٨ ظ .

(٦) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٣٣ .

(٧) البداية والنهاية ٩ : ٣٥٤ .

(٨) الإمامة والسياسة ٢ : ١٣٠ .

(٩) عيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ ، حـ ٥ ، الورقة : ١٧ و .

(١٠) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢١٦ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٦٨ .

عليهم برِفْدِك ، وعرفهم طَوْلَكَ[١١] على من كان قَبْلَك . وإن رأى أمير المؤمنين أنْ يأذن لى فى القدوم عليه لأُشَافِهَهُ بأمورٍ أكْرَهُ الكتابَ بها ، فعَل إنْ شاء الله»[١٢] .

فمروان بن محمد يصدر فى كتابه عما رَدَّدَه الأمويون من أن الله انتخبهم أولياء على الناس فى الأرض ، وقدَّر لهم الخلافة تقديراً ، إذ يزعم أن الله اصطفى الوليد ليكون وصياً على عباده وبلاده ، ويأخذ على هشام وأعوانه فساد عقائدهم لتنكرهم للوليد ، واحتيالهم لخلعه ، واستهانتهم بإرادة الله وسلطانه . ولكن الله عصم الوليد منهم ، ووقاه شرهم ، وخوَّله أمر الأمة ، فقام به وأداه أداءً حسناً ، ففاز برضوان الله . ويعظ أعداء الوليد وينذرهم ويفتح باب العفو لهم ، فمن بقى منهم مخاصماً للوليد أرْدَى نفسه ، وأغضبَ ربَّه ، ومن رجع عن ضلاله ، وثاب إلى رشده ، صفح الوليد عنه ، وقَبِلَ توبته . ويؤكد فى خاتمة كتابه أن أهل أرمينية بايعوا للوليد راضين فرحين بخلافته ، ويسأله أن يشملهم بخيره ، لتزداد محبتهم فيه ، ويعظم التفافهم عليه ، ويتَّصِلَ تأييدهم له .

ونظم الوليد عدة مقطوعات بعد أن زف إليه خبر قيامه بالخلافة عبَّر فيها عن سعادته بموت هشام ، ومسرته بإقبال الدنيا عليه ، إذ يقول فى مقطوعة من وزن مجزوء الخفيف مغتبطاً بوفاة هشامٍ ، ومستبشراً بعيش آمن باسم ، بل بربيعٍ ضاحكٍ ، فإن دنياه كانت قاحلةً مجدبةً فانية ، فلما مات هشام دَبَّتْ فيها الحياة ، إذ انهمر المطر ، وأينع الشجر ، وأورق وأزهر[١٣] :

هَلَكَ الأحولُ المَشُو مُ فقد أُرْسِلَ الَمطَرْ
وَمَلَكْنَا مِنْ بعد ذا كَ فقد أَوْرَقَ الشَّجَرْ
فـاشـكـرُوا اللهَ إنَّـهُ زائدٌ كلَّ مَنْ شكَرْ

ويقول فى مقطوعة من وزن الخفيف يصور انشراحه بنبإ استخلافه ، وما غَمَرَهُ من البهجة والنشوة ، وما أخذه من الطرب والخفة ، إذ جعل يعاقر الخمر ، ويسمع الغناء ، ويمرح ويرقص[١٤] :

---

(١١) الطَّوْلُ : الفضل .

(١٢) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٨ ، وانظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٦ ، وعيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ حـ ٥ ، الورقة : ١٧ و ، والبادية والنهاية ١٠ : ٤ . ونص الكتاب فى أنساب الأشراف أجود من نصه فى المصادر الأخرى وأصح مما فى تاريخ الطبرى .

(١٣) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص . ٣١٩ ، والأغانى ٧ : ٢٠ . والكامل فى التاريخ ، ٥ : ٢٦٧ ، وتاريخ دمشق ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٣٣٩٠ ، المجلد ١٧ ، الورقة : ٤٨٠ ظ .

(١٤) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٨ ، والأغانى ٧ : ١٦ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٦٩ ، وعيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ حـ ٥ ، الورقة : ٢٤ ظ .

طابَ عَيْشِي وطَابَ شُرْبُ السُّلافَهْ إذ أَتانا نَعِيُّ مَنْ بالرُّصَافَهْ
وأتانا البريدُ يَنْعَى هِشاماً وأتانَا بخاتَمٍ لِلْخلافَهْ
فَشَرِبْنَا مِنْ خَمْرِ عانَة صِرْفاً وَلَهَوْنَا بِقَيْنَةٍ عَزَّافَهْ

ويقول فى مقطوعة ثالثة من وزن مجزوء الخفيف ، متشفياً بموت هشام ، ومغتبطاً بما اعترى بناته من الألم والهم ، وما أغرقن فيه من البكاء والنواح ، مهدداً لهن بمصير مظلم[١٥] :

إنِّى سَمِعْتُ خَلِيلِي نَحْوَ الرُّصَافَةِ رَنَّهْ
خَرَجْتُ أَسْحَبُ ذَيْلِي أَقُولُ مَا شَأْنُهُنَّهْ
إذا بناتُ هشامٍ يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّهْ
يَنْدُبْنَ شيخاً كبيراً قد كانَ يُكْرِمُهُنَّهْ
يَقُلْنَ وَيْلاً وعَوْلاً والوَيْلُ حَلَّ بِهِنَّهْ
أنا المُخَنَّثُ حَقاً إنْ لَمْ أُنَيِّكْهُنَّهْ !

ويقول فى مقطوعة أخرى من وزن المتقاربُ مُتَمَدِّحاً بنفسه ونسبه وفوزه بالخلافة ، مع ترقبه اللحظة التى يستوى فيها على كرسى الملك ، ويصعد المنبر ويخطب الناس ، فإنها لحظة عزيزة عليه ، طالما انتظر أن يفرح بها[١٦] :

أنا ابنُ يزيد بن عبد الملكْ وجَدِّىَ مروانُ لاَ أُمَّ لَكْ
فكيفَ إذا ما مَلَكْتُ البلادَ وقتُ خطيباً على مِنْبَرِكْ
فَبَخْ بَخْ بخٍ لكَ ما أكرَمَكْ وبَخْ بَخْ بَخٍ لكَ ما أفخرك

فمقطوعاته تدل على قوة انفعاله ، وإعجابه بنفسه ، وعدم تحكمه فى خواطره ومشاعره وحركاته ، لأن المفاجأة أذهلته وأدهشته . ومقطوعاته توثق ما رواه المدائنى من أن الوليد كاد لا يصدق أن هشاماً قد مات حين قدم عليه الرسل من الرصافة يحملون إليه نبأ موت هشام . وهِىَ تنْطِقُ بسهولة أسلوبه وحرارته وحيويته ، ورشاقة ألفاظه وموسيقاه . وهى خصائص يمتاز بها شعره الغزلى ، كما يمتاز بها شعره الخمرى الصحيح الذى نظمه بعد استخلافه ، واتصاله بشعراء الكوفة الظرفاء .

---

(١٥) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٨ ، والأغانى ٧ : ١٧ . ومروج الذهب ٣ : ٢٢٦ ، وشذرات الذهب ١ : ١٦٨ .

(١٦) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٦ .

٢ – بطشه بأعدائه

لم يكد الوليد يبايع بالخلافة ، ويصبح صاحب السلطان حتى قَرَّر محاسبة خصومه والاقتصاص منهم ، والثأر لنفسه من أبناء هشام وأعوانه وموظفيه الذين كانوا يؤازرونه فى خلع الوليد .

وكان العباس بن الوليد بن عبد الملك شَغَبَ على الوليد فى أول الأمر ، ولكنه كان أَرْصَنَ إخوته وأَرْزَنَهم[١٧] ، وأبصرهم بأخطار الطعن فى الوليد ، وما ينتج عنه من تفكك الأسرة الأموية وتَمزُّقها وَزَوَال مُلْكها ، وكان أشدهم امتناعاً عن مناصرة هشام فى سعيه إلى عزل الوليد من منصبه ، والبيعة لمسلمة بن هشام بولاية العهد ، كما سكت عن السخرية من الوليد ، والهزء به فَحَسُنت الصلة بينهما وقَوِيَتْ وتَوَثَّقت . ومن أجل ذلك كَلَّفه الوليد بمصادرة ثروة هشام والحجز على أكثر أبنائه وولاته ، وفى ذلك يقول المدائنى : «كتب الوليد إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أن يأتى الرصافة ، فيحصى ما فيها من أموال هشام وولده ، ويأخذ عُمَّاله وحَشَمه ، إلَّا مسلمة بن هشام ، فإنه كتب إليه ألاَّ يَعْرِضَ له ، ولا يَدْخُلَ منزله ، فإنه كان يُكْثِرُ أن يكلم أباه فى الرفق به ، ويكُفّه عنه . فقدم العباس الرصافة فأحكم ما كتب إليه الوليد ، وكتب إلى الوليد بأخذ بنى هشام وحشمه وإحصاء أموال هشام»[١٨] .

وإنما استطاع العباس إنجاز مهمته إنجازاً سريعاً مُتْقَناً ، لأن عَيَّاض بن مسلم ، كاتب الوليد كان فى سجن هشام بالرصافة ، ولم يزل محبوساً حتى نزل بهشام أمر الله ، فلما صار فى حَدٍّ لا ترجى الحياة لِمِثْلِه ، أرسل عياض إلى الخُزَّان أن احتفظوا بما فى أيديكم ، فلا يَصِلَنَّ أحد منه إلى شىء . وأفاق هشام إفاقةً ، فطلب شيئاً فمنعوه ، فقال : أرَانا كنا خُزَّانا للوليد ! ومات من ساعته . وخرج عياض من السجن ، فختم أبواب الخزائن ، وأمر بهشام فأنزل عن فُرُشه ، فما وجدوا له قُمْقُماً يُسَخَّنُ له فيه الماء حتى استعاروه ، ولا وجدوا كفناً من الخزائن ، فكفنه غالب مولى هشام»[١٩] .

---

(١٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ : ٢٧٠ .

(١٨) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٦ ، وانظر الإمامة والسياسة ٢ : ١٣٠ ، وأنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ٥ : ٢٦٧ ، وعيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ حـ ٥ ، الورقة : ١٦ ظ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٤ .

(١٩) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٥ ، نر تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٢٨ ، وأنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٦ ، والأغانى ٧ : ١٥ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٦٦ ، وتاريخ دمشق ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٣٣٩٠ ، المجلد ١٧ ، الورقة : ٤٧٩ و ، والبداية والنهاية ٩ : ٣٥٤ .

وَنكّلَ الوليد ببعض أبناء هشام الذين كانوا يُعَرِّضُونَ به ، وَيحثُّونَ أباهم على عزله ، فقبض على سليمان بن هشام ، وكان يساعد أبان على ذَمِّ الوليد ، ويشير عليه بخلعه وقتله ، وقال له الوليد : ألست أَعْدَى الناس لى ؟ فأغلظ له سليمان ، فضربه الوليد مائة سَوْط ، وحَلَقَ رأسه ولحيته ، وغَرَّبَهُ إلى عَمَّان ، فلم يزل محبوساً بها حتى قتل الوليد[٢٠] . وَسَجَنَ يزيد بن هشام[٢١] ، لأنه كان يهجوه ويُؤَلِّبُ عليه[٢٢] .

وضَيَّقَ على أهل هشام وأصحابه ، فجاء خادم لهشام ، فوقف على قبره وبكى وقال : يا أمير المؤمنين ، لو رأيت ما يصنع الوليد بنا ! فقال بعض من هناك : لو رأيت ما صُنِعَ بهشام ، لعلمت أنك فى نعمة لا تقوم بشكرها[٢٣] !

وأعرب الوليد فى شعره عن فرحته بما ألحقه بأبناء هشام من مصادرة لأموالهم ، وتعذيبٍ لهم ، وشمت بِبَلِيَّتِهِمَ وما آلوا إليه من خزيٍ وهوانٍ ، وأعلن أنه لم يَجُرْ عليهم ، فإنه جَزَاهم بما صنعوا وما قَدَّموا من سيئات ، وانتصف لنفسه منهم ، مسترشداً بتعاليم الإسلام التى تدعو إلى معاقبة الباغين . وَوَدَّ لو بقى هشام حيًّا حتى يتأكد من أن الحقد لا يُوَلِّدُ غير الحقد ، ويشاهد جنايته على أولاده ، إذ كان البادئ بظلم ذوى القربى والاعتداء عليهم ، يقول[٢٤] :

ليتَ هشاماً عاشَ حتَّى يَرَى ... مِحْلَبَهُ الأَوْفَرَ قدِ أُتْرِعَا[٢٥]
كلنا لهُ الصَّاعَ إذْ كَالَها ... وما ظلمناهُ بها أَصْوُعَا
وما أَتَيْنَاَ ذاك عَنْ بِدْعَةٍ ... أَحَلَّهُ القرآنُ لِى أجمعا

ويروى البلاذرى عن عباس[٢٦] بن هشام الكلبى عن أبيه عن جده أنَّ الوليد بن يزيد أقصى

(٢٠) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٦ ، وانظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٤ : ٤٦٢ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٨٠ ، وتاريخ ابن خلدون ، المجلد الثالث ، القسم الأول ص : ٢٢٧ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٨ .

(٢١) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٦ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ ، والعقد الفريد ٤ : ٤٦٢ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٨٠ ، وتاريخ ابن خلدون المجلد الثالث القسم الأول ص : ٢٢٧ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٨ .

(٢٢) الأغانى ١٦ : ٢٧٨ .

(٢٣) الكامل فى التاريخ ٥ : ٢٦٧ .

(٢٤) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٧ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢١٦ ، والأغانى ١ : ١٨ ، ١٠ ، ٨١ ، وتاريخ دمشق ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٣٣٩٠ ، المجلد ١٧ ، الورقة : ٤٨٠ و ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٦٨ ، وعيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ حـ ٥ ، والورقة : ١٦ ظ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٣ .

(٢٥) المحلب : الإناء الذى يحلب فيه . وأترع : امتلأ .

(٢٦) انظر ترجمته ومدى الثقة فى روايته للأخبار فى نزهة الألبا ص : ٨٩ ، ووفيات الأعيان ٦ : ٨٢ .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وجميع إخوته وأهل بيته ، واستخف بهم ، وحرمهم وأغلظ لهم ، وحبس بعضهم[٢٧]

وهو خبر كرره أكثر المؤرخين المتقدمين والمتأخرين[٢٨] ، على ما فيه من تعميم ، مع تصرفهم فى ألفاظه ، واختصارهم له ، أو زيادتهم عليه ، ولم يذكروا غير يزيد بن الوليد من أبناء الوليد بن عبد الملك الذين زعم عباس بن هشام الكلبى أن الوليد سجنهم وطغى عليهم .

والصحيح أن الوليد لم يَعْسِف بأبناء عمه الوليد بن عبد الملك ، فقد كان يزيد بن الوليد حراً طليقاً فى خلافة الوليد بن يزيد كلها ، مع أنه كان أشدَّ أبناء الوليد بن عبد الملك قولاً فى الوليد ، وكان الناس إلى قوله أميل ، حتى حملهم على الفتك به[٢٩] . وكان العباس بن الوليد بأخرة من خلافة هشام قد لزم الحياد ، وعاد إلى مصادقة الوليد والوفاء له ، كما رفض المشاركة فى الثورة به ، وانتصر له على أخيه يزيد بن الوليد[٣٠]

ويظهر أن أكثر المؤرخين تأثروا فى حديثهم عن ظلم الوليد لأبناء عمه الوليد بن عبد الملك بما انتهى إليه أمر الوليد ويزيد بن الوليد من التباغض والتطاحن والتحارب على الخلافة ، وما رَوَّج يزيد ابن الوليد من الأباطيل والتهم الفاسدة[٣١] ، حينما كان يُعِدُّ للخروج ، ويسأل الناس مظاهرته على الوليد . وتأثروا أيضاً بأخبار المشاكل النِّسْوِيَّة التى ثارت بين أولاد يزيد بن عبد الملك ، وأبناء أخيه الوليد بن عبد الملك ، وتَدَخُّلِ الوليد فيها ، وانحيازه لإخوته ، فقد أخذ الوليد بن يزيد جارية لآل الوليد بن عبد الملك ، فكَلَّمَه عمر بن الوليد فيها . فقال : لا أَرُدُّها . فقال عمر : إذن تكثر الصواهل حول عسكرك[٣٢] ! وكانت ابنة محمد[٣٣] بن عبد الملك عند روح بن الوليد بن عبد الملك ، فأَغْضَبَها ، فَفَرَّق الوليد بن يزيد بينهما ، وزوجها أخاه عبد الجبار ، فحقد لذلك بنو

---

(٢٧) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٦ .

(٢٨) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٨٠ ، وتاريخ ابن خلدون ، المجلد الثالث ، القسم الأول ص : ٢٢٧ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٨ .

(٢٩) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ .

(٣٠) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٨ ، وأنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٨ ، والأغانى ٧ : ٧٨ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٨٢ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٩ ، والمختصر فى أخبار البشر ١ : ٢٠٥ .

(٣١) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ .

(٣٢) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٦ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٨٠ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٨ .

(٣٣) كان لعبد الملك بن مروان ابن يسمى محمداً ، انظر أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الأول ص : ١١٦٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٤٢٠ ، وجمهرة أنساب العرب ص : ٨٩ .

الوليد بن عبد الملك على الوليد بن يزيد[٣٤] . وكان عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك أخو الوليد يُرْمَى بالتأنيث . فتزوج ابنة محمد[٣٥] بن الوليد بن عبد الملك ، فلم يَصِلْ إليها . فَفَرَّق هشام بينهما . فخلف عليها بعده محمد بن روح بن الوليد بن عبد الملك ، فغضب الوليد بن يزيد ، وأساء إلى آل الوليد بن عبد الملك ، وتجنّى على محمد بن روح فحبسه ، وحبس عدة منهم فيهم المؤمل بن العباس بن الوليد[٣٦] . ويبدو أنه أفرج عنه بعد وقت قصير ، ثم استرضاه واستماله إليه ، فقاتل المؤمل معه جند يزيد بن الوليد عندما ثاروا به[٣٧] .

وعَذَّب الوليد أخوال هشام وعماله أنواع العذاب ، وسفك دماءهم ، لأنه وجد فى ديوان هشام كتباً يقومون فيها عزم هشام على خلعه[٣٨] . فدفع الوليد إلى خاله يوسف بن محمد الثقفى واليه على المدينة ومكة والطائف ، إبراهيم ومحمداً ابنى هشام بن إسماعيل المخزومى ، خَالَىْ هشام مُوثَقَيْن فى عباءتين ، فقدم بهما المدينة ، وأقامها بها للناس ، ثم كتب الوليد إليه بأمره أن يبعث بهما إلى يوسف ابن عمر الثقفى ، وهو يومئذ عامله على العراق . فلما قدما عليه عذَّبهما حتى قتلهما ، وقد رفع عليهما عند الوليد أنهما أخذا مالاً كثيراً[٣٩] .

ويُفَصِّلُ أبو الفرج موقفَ الوليد منهما ، وعقابه لهما فيقول : «كان الوليد بن يزيد مُضْطَغِنًا على محمد بن هشام لأشياء كانت تبلغه عنه فى حياة هشام بن عبد الملك ، فلما ولى الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام ، وأشْخَصَا إليه إلى الشام ، ثم دعا بالسياط ، فقال له محمد : أَسْأَلُكَ بالقرابة . قال : وأى قرابة بينى وبينك ! وهل أنت إلّا من أَشْجَع ! قال : فأسألك بصهر عبد الملك . قال : لم تحفظه . فقال له : يا أمير المؤمنين ، قد نهى رسول الله ﷺ أن يُضْرَبَ قرشى

---

(٣٤) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٢٢٩ ، ٢٨٠ ، ٣٢٦ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٨٠ .

(٣٥) كان للوليد بن عبد الملك ابن يسمى محمداً . انظر أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ١٠٥ ، وجمهرة أنساب العرب ص : ٨٩ .

(٣٦) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٦ .

(٣٧) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٧ .

(٣٨) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣١ .

(٣٩) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٧ ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٦ ، ونسب قريش ص : ٣٢٩ ، وأنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٠٠ ، وعيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ حـ ٥ ، الورقة : ١٧ ظ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٤ .

بالسياط إلاَّ فى حَدٍّ . قال : فنى حَدٌّ أَضْرِبُكَ وَقَودٍ ، أنت أول من سَنَّ ذلك على العرجى[٤٠] ، وهو ابن عمى وابن أمير المؤمنين عثمان ، فما رَعَيْتَ حَقَّ جَدِّه ولا نَسَبَه بهشام ، ولا ذكرت حينئذ هذا الخبر ، وأنا وَلِىُّ ثأره ، إضْرِبْ يا غلام ، فضربها ضَرْباً مُبَرِّحاً ، وأثقلا بالحديد ، ووجه بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة وأمر باستِصْفَائهما وتعذيبهما حتى يَتْلَفا ، وكتب إليه : إحبسهما مع ابن النصرانية – يعنى خالداً القسرى – ونَفْسَكَ نَفْسَكَ إن عاش أحد منهم . فعذَّبهم عذاباً شديداً ، وأخذ منهم مالاً عظيماً حتى لم يبق فيهم موضع للضرب . فكان محمد بن هشام مطروحاً ، فإذا أرادوا أن يُقِيمُوه أخذوا بلحيته فجذبوه بها . ولما اشتدت عليهما الحال ، تحامل إبراهيم لينظر فى وجه محمد ، فوقع عليه ، فماتا جميعاً »[٤١] .

ويقول أبو الفرج أيضا : « أمر الوليد بأخذ ابنى هشام بن إسماعيل المخزومى ، فأُخِذَا بعد أن عاذ إبراهيم بن هشام بقبر يزيد بن عبد الملك ، فقال الوليد : ما أراه إلا قد نجا ، فقال له يحيى بن عروة ابن الزبير ، وأخوه عبد الله[٤٢] : إن الله لم يجعل قبر أبيك معاذاً للظالمين ، فَخُذْه بِرَدِّ ما فى يده من مال الله . فقال : صدقت . وأخذهما فبعث بهما إلى يوسف بن عمر ، وكتب إليه أن يبسط عليهما العذاب حتى يَتْلَفا ، ففعل ذلك بهما ، وماتا جميعاً فى العذاب بعد أن أُقِيمَ إبراهيم بن هشام للناس حتى اقْتَضَوْا منه المظالم »[٤٣] .

وتَشَفَّى الوليد فى شعره من إبراهيم بن هشام ، وسخر منه بعد قبضه عليه ، واتهمه بأنه دَعِىٌّ ملصق بقريش ليس منهم ، بل من أشجع من قيس عيلان . وصوَّر ما أعدَّه له من العقاب ، فقد قرر سجنه ثم صلبه وقتله ، يقول[٤٤] :

قَدْ رَاحَ نَحْوَ العِراقِ مَشْخَلَبَهْ قُصَارُه السِّجْنُ بَعْدَهُ الخَشَبَهْ[٤٥]
يَرْكَبُها صَاغِراً بلا قَتَبٍ ولا خِطامٍ وحَوْلَهُ جَلَبَهْ

---

(٤٠) كان العرجى هجا محمد بن هشام حين ولى مكة لهشام بن عبد الملك ، ثم شبَّب بأمه جيداء ، ثم شبَّب بزوجه جُبَرَة . فلم يزل محمد بن هشام مضطغناً عليه من الأشعار التى يقولها فيه ، ومُتَطلِّباً سبيلا عليه حتىَّ وَجَد فيه ، فأخذه وقيده ، وضربه ، وأقامه للناس . ثم حبسه ، وأقسم : لا يخرج من الحبس مادام لى سلطان . فمكث فى حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات فيه . (انظر الأغانى ١ : ٤٠٥–٤٠٩) .

(٤١) الأغانى ١ : ٤١٥ ، وانظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٠ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٧٣ ، ووفيات الأعيان ٥ : ٤٠١

(٤٢) كان يحيى بن عروه مخاصماً لإبراهيم بن هشام ، وكان يهجوه ويستخف به . (انظر جمهرة أنساب العرب ص : ١٢٤)

(٤٣) الأغانى ٧ : ١٦ .

(٤٤) الأغانى ١ : ٤١٦ .

(٤٥) المشخلبة : كلمة عراقية ليس على بنائها شىء من العربية . وهى تتخذ من الليف والخرز أمثال الحلى . بعده الخشبة : أى الصلب .

فَقُلْ لِدَعْجَاءَ إنْ مَرَرْتَ بها ... لَنْ يُعْجِزَ اللهَ هاربٌ طَلَبَهْ
قد جَعَلَ اللهُ بَعْدَ غَلْبَتِكُمْ ... لنا عليكمْ يـادُلُّـدُلُ الغَلَبَهْ
لستَ إلى هاشم ولا أَسَدٍ ... ولا إلى نَوْفَلٍ ولا الحَجَبَهْ[٤٦]
لكنَّما أشجعٌ أبوكَ سَلِ الْسـ ... ـكَلْبِيَّ لا ما يُزَوِّقُ الكَذِبَهْ[٤٧]

وعَسَفَ الوليد بالوليد بن القعقاع العبسى وأخيه عبد الملك لأنهما كانا يشجعان هشاماً على خلعه ، فأرسلهما إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ليحاسبهما ويقتص منهما . وكان الوليد بن القعقاع جلد ابن هبيرة بأمر هشام بن عبد الملك . ويروى المدائنى خبر سجن ابن هبيرة لهما ، وقتله إياهما ، فيقول : «كان هشام بن عبد الملك خطب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أخته أو ابنته على معاوية بن هشام ، فأبى أن يزوجه إياها ، فجرى بعد ذلك بين يزيد بن عمر وبين الوليد بن القعقاع كلام[٤٨] بلغَ هشاماً ، فبعث به إلى الوليد بن القعقاع ، فضربه مائة سوط ، وحبسه . . . فلما مات هشام كان البشير بموته الوليد بن يزيد (بن عمر بن هبيرة) . فقال له الوليد : احتكم ، فقال : ولاية قنسرين ، والتَّخْلِية بينى وبين الوليد بن القعقاع وأخيه عبد الملك بن القعقاع ، فأجابه إلى ذلك . ويقال : إنه وَلاه جُنْدَ قنسرين ، فهرب الوليد وعبد الملك ابنا القعقاع ، فاستجارا بقبر مروان[٤٩] ، فلم يُجِرْهُما الوليد ، وبعث بهما إلى يزيد بن عمر ، وكان على حبسه رجل من فزارة يقال له نوفل من بنى سكين ، فدفعهما إليه فحبسهما ، فمات أحدهما فى الحبس فى العذاب ، ويقال : ماتا جميعاً[٥٠] » .

وهكذا لم يترك الوليد أحداً من أعدائه الذين حملوا عليه فى أيام هشام ، وأيدوا عزله من ولاية العهد إلّا جَفَاهُ أو اعتقله وانتقم منه . أما أبناء هشام بن عبد الملك فاكتفى بحبسهم وجَلْدِهم ، وأما

---

(٤٦) يريد حجبة الكعبة . وكانت الحجابة فى بنى قصى ، وبعد الرسول وحجابة البيت فى يد شيبة بن عثمان من بنى عبد الدار بن قصى ، فأبقاها واختص بها أولاده من بعده .

(٤٧) يريد بالكلبى محمد بن السائب النسابة المعروف .

(٤٨) كان ما جرى بينهما أن الوليد بن القعقاع قال ليزيد بن عمر بن هبيرة : يا ابن الفَرَّار ، يعنى أباه حين هرب من سجن خالد القسرى . فقال له يزيد : يا ابن الضَّرَّاط . فقال الوليد : يا ابن اللخناء . فقال يزيد :

بل أنتَ نَزْوَةُ خَوَّارٍ على أَمَةٍ ... لا يَسْبِقُ الحَلَبَاتِ اللؤمُ والخَوَرُ

فقال : يا ابن الفجواء . قال يزيد : إنما قدمكم أعجاز النساء ، وقدمتنا صدور العوالى ، يعنى أن وَلّادة أم الوليد وسليمان ابنا عبد الملك كانت منهم . وكان القعقاع ابن خليد ضَرَطَ عند الوليد بن عبد الملك ، وذلك أن الوليد قال لابن رأس الجالوت : تزعمون أن فى ولد داود علامة يعرفون بها ، وهى أن يمد أحدهم يده فتنال ركبته : فقال القعقاع : فيدى تنال ركبتى ، وقام لينال ركبته بيده فضرط . (انظر أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٧) .

(٤٩) فى رواية المدائنى التى نقلها الطبرى أنهما عاذا بقبر يزيد بن عبد الملك ، (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٧) .

(٥٠) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٧ ، وانظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٧ .

أبناء الوليد بن عبد الملك فلم يُؤْذِهم كما آذَى أبناء هشام ، وأما محمد وإبراهيم ابنا هشام المخزومى ، والوليد وعبد الملك ابنا القعقاع العبسى فسجنهم وأذن بقتلهم .

٣ – تغييراته الإدارية

كشفت رسائل عمال هشام التى عثر بها الوليد عن آرائهم فى ولايته للعهد(٥١) ، فبنى عليها موقفه منهم ، واتخذها أساساً لما أحدث من تَعْديلاتٍ فى الوظائف المختلفة . أما العمال الذين دَلَّت رسائلهم على تحزبهم لهشام ، وتأييدهم له فى تحويل ولاية العهد إلى ابنه مسلمة فعزلهم الوليد ، وعاقبهم عقاباً صارماً . وأما العمال الذين صَمَتُوا عن الخوض فى ولاية العهد ، أو جهروا فى رسائلهم بمعارضتهم لهشام فَثَبَّتَهم الوليد ، وأبقاهم فى مناصبهم ، وأحسن إليهم .

وكان محمد بن هشام المخزومى ، خال هشام بن عبد الملك أَوَّلَ العمال الذين فصلهم الوليد ، إذْ نَحَّاه عن المدينة ومكة والطائف(٥٢) ، وعين مكانه خاله يوسف بن محمد الثقفى(٥٣) . وأَقْصَى الوليد ابن القعقاع العبسى عن قنسرين ، وأسندها إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى(٥٤) . وأَعْفَى عبد الملك ابن القعقاع العبسى من ولاية حمص ، ووكلها الوليد إلى ابنه عثمان ، وضم إليه ربيعة بن عبد الرحمن(٥٥) ، فقيه أهل المدينة ، المعروف بربيعة الرَّأْى(٥٦) .

---

(٥١) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣١ .

(٥٢) يروى اليعقوبى أن الوليد عزل إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى ، خال هشام عن المدينة ومكة والطائف . (انظر تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣١) . وهو مُخْطئٌ فيما روى . والصحيح أن إبراهيم بن هشام كان عامل هشام بن عبد الملك على المدينة ومكة والطائف منذ سنة ست ومائة إلى سنة ثلاث عشرة ومائة . (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٨٩) . ثم عزله هشام عنها سنة أربع عشرة ومائة ، واستعمل على المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبى العاصى ، وعلى مكة والطائف محمد بن هشام المخزومى . (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٩١) . فبقى خالد بن عبد الملك على المدينة إلى سنة ثمانى عشرة ومائة ، ثم عُزِلَ عنها ، وجُمِعَتْ لمحمد بن هشام المخزومى . (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١١١) . فأصبح محمد بن هشام واليا على المدينة ومكة والطائف . ولم يزل عليها جميعاً حتى توفى هشام بن عبد الملك سنة خمس وعشرين ومائة . (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٠) .

(٥٣) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٠٠ ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٢ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٦ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٧٣ .

(٥٤) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٧ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٧ .

(٥٥) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٠ ،

(٥٦) ترجمته فى تاريخ بغداد ٨ : ٤٢٠ ، وطبقات الفقهاء للشيرازى ص : ٦٥ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٨٨ ، وميزان الاعتدال ٢ : ٤٤ .

وأما سائر عُمَّال هشام فلم يَعْرِضِ الوليدُ لهم ، ولم يعزلهم من ولاياتهم ، فاحتفظ يوسف بن عمر الثقفى ، خال الوليد بحكم العراق[٥٧] . لأنه كان أشار على هشام ألّا يخلع الوليد من ولاية العهد[٥٨] . وظل القاسم بن محمد بن القاسم الثقفى على البصرة[٥٩] . وتعاقَبَ على الكوفة غيرُ عاملٍ خلال ولاية يوسف بن عمر العراق لهشام ، كان آخرهم زياد بن صخر اللخمى[٦٠] . فعزله يوسف عنها فى مُسْتَهَلِّ خلافة الوليد ، واستعمل عليها عبيد الله بن العباس الكندى ، ثم عزله وَوَلَّى أبا أمية ابن المغيرة ابن عبد الله بن أبى عقيل الثقفى ، فأقام جمعة حتى هرب يوسف بن عمر بعد قتل الوليد[٦١] .

وظل مروان بن محمد على أرمينية[٦٢] ، وحرب بن قطن بن قبيصة بن مخارق الهلالى على سجستان[٦٣] ، ونصر بن سيار على خراسان[٦٤] ، وعمرو بن محمد بن القاسم الثقفى على السند[٦٥] .

وكان على اليمن فى نهاية خلافة هشام القاسم بن عمر الثقفى ، أخو يوسف بن عمر ، فلم يزل عليها حتى مات هشام[٦٦] ، ثم وليها الضحاك بن زمل السكسكى حتى قتل الوليد[٦٧] . وولى محمد ابن حسان بن سعيد الأسيدى البحرين لهشام ، ومن بعده للوليد[٦٨] . وبقى المهاجر بن عبد الله الكلابى على اليمامة فى أيام هشام والوليد[٦٩] . وكان على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فى عهد هشام والوليد[٧٠] .

ولم يخلع الوليد من قضاة الأمصار زمن هشام إلّا يوسف بن سعد بن إبراهيم ، عزله يوسف بن

---

(٥٧) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٧٤ .

(٥٨) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣١ .

(٥٩) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٢ .

(٦٠) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٣٦ .

(٦١) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٣ .

(٦٢) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٤ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٧٩ ، ٢٣٠ .

(٦٣) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٣٨ ، ٥٥٣ .

(٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٣ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٤ ، ومروج الذهب ٣ : ٢٢٥ .

(٦٥) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٣٨ ، ٥٥٣ .

(٦٦) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٣٤ .

(٦٧) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٢ .

(٦٨) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٣٨ ، ٥٥٣ .

(٦٩) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٣٩ ، ٥٥٣ .

(٧٠) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٠ ، ٥٥٣ .

محمد الثقفى عن قضاء المدينة وولى يحيى بن سعيد الأنصارى[٧١] . وأما سائر القضاة فاستمروا فى وظائفهم ، فكان الحارث بن يَمْجُد الأشعرى قاضى دمشق لهشام والوليد[٧٢] ، وولى قضاءها للوليد الحارث بن مخمر أبو حبيب الظهرى الحمصى[٧٣] . وكان على قضاء البصرة يوم قدم يوسف بن عمر سنة عشرين ومائة عبد الله بن بريدة الأسلمى ، فلم يلبث أن مات ، فاستقضى عامر بن عبيدة الباهلى ، فلم يزل قاضياً حتى مات هشام والوليد[٧٤] . وكان محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى قاضى الكوفة لهشام والوليد[٧٥] .

ولكن الوليد استغنى عن أغلب الموظفين الذين ولوا لهشام الشرط والرسائل والخراج والجند والخاتم والخزائن وبيوت الأموال والحرس والخاتم الصغير والخاصة ، فقد كان على شرط هشام يزيد ابن يعلى بن ضخم العبسى[٧٦] ، فأقصاه الوليد ، وعَيَّن عبد الرحمن بن حنبل الكلبى[٧٧] ، ثم عزله وَوَلَّى عبد الله بن عامر الكُلاعِى[٧٨] .

واستكتب الوليد سالماً مولى هشام ، ثم كتب له ابنه عبد الله بن سالم[٧٩] . وكان أبو الزبير المنذر ابن عمرو من كتابه[٨٠] .

وصَرَفَ سعيد بن عقبة مولى بنى الحارث بن كعب عن ديوان الخراج والجند ، وكان عليه أيام هشام[٨١] ، واستعمل عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف[٨٢] .

وعَزَل عبد الله بن عمرو بن الحارث عن الخاتم والخزائن وبيوت الأموال ، وكان عليها أيام

---

(٧١) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٧ ، وتاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٤ .

(٧٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٤٦١ .

(٧٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٤٥٧ .

(٧٤) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٣ ، ٥٥٤ .

(٧٥) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٤ ، ٥٥٤ ، وأنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنى ، المجلد الثانى ص : ٣٠٤ .

(٧٦) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٤ .

(٧٧) يسميه اليعقوبى عبد الرحمن بن حميد الكلبى . (انظر تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣٤) .

(٧٨) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٥ . ويقول هشام بن محمد الكلبى : إن صاحب شرط الوليد بن يزيد هو خالد بن عثمان بن بحدل الكلبى ، وخليفته على الشرطة يزيد بن يعلى بن ضخم العبسى . (انظر أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٣٤) . وهو مخطئ فى ذلك ، فإن خالد بن عثمان الكلبى ولى الشرطة لهشام . (انظر جمهرة أنساب العرب ص : ٤٥٧) ، كما ولى يزيد بن يعلى العبسى شرطة هشام أيضاً . (انظر تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٤) .

(٧٩) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٥ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٥٥ .

(٨٠) الأغانى ٧ : ١٥ .

(٨١) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٥ .

(٨٢) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٥ .

هشام[٨٣] ، .وأسندها مع الشرط إلى عبد الرحمن بن حنبل الكلبى[٨٤] .

وكان لربيع بن زياد على حرس هشام[٨٥] ، فأعفاه الوليد ، واختار غيلان ختن أبى معن قائداً لحرسه[٨٦] ، ويزعم اليعقوبى وَحْدَه أنَّ قَطَرِيًّا مَوْلَى الوليد بن يزيد كان قائد حرسه[٨٧] .

وفصل الوليد غالب بن مسعود مَوْلَى هشام وحاجبه[٨٨] ، وَوَظَّف مولاه عيسى بن مقسم حاجباً له[٨٩] .

وكان على الخاتم الصغير والخاصة فى أيام هشام مولاه اصطخر أبو الزبير[٩٠] ، فَنَحَّاه الوليد ، وجعل الخاتم الصغير بيد رباح بن أبى عمارة[٩١] .

وظاهر أن الوليد عزل عمال الولايات الذين تواطأوا على خلعه من ولاية العهد ، أما بقية العمال فتركهم فى مناصبهم ، لأنهم لم يتدخلوا فى ولاية العهد زمن هشام . ولكنه أقصى كل موظفى الدواوين والقصر السابقين ، لأنهم من خاصة هشام ، ولأنهم شاركوا فيما أنزله هشام به من السوء ، ولأن كل خليفة كان يفصل أكثر موظفى الدواوين والقصر السابقين ، ويَسْتَعِيضُ عنهم بموظفين آخرين يثق بهم ويطمئن إليهم .

وكان عمال الوليد وموظفوه من القيسية واليمنية ومن مواليه . وسعى يوسف بن عمر الثقفى إلى أن يوطد نفوذ قيس بالمشرق كما وطَّده بالعراق ، ونجح فى ذلك بعض النجاح ، فكان عاملا سجستان والسند من قيس . ولكنه أخفق فى بسط سلطانه على خراسان ، وكان يطمع فى أن يوليها لرجل من قيس منذ ولى العراق لهشام سنة عشرين ومائة[٩٢] ، فلم يمكنه هشام من ذلك . وفى سنة خمس

---

(٨٣) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٥ .

(٨٤) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٥ .

(٨٥) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٥ .

(٨٦) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٥ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١٣٣ ، وأنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٠٠ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٥٩ .

(٨٧) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣٤ .

(٨٨) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٦ .

(٨٩) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٥ . ويذهب اليعقوبى إلى أن حاجب الوليد هو قَطَنٌ مولاه . (انظر تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣٤ . وهو مخطئ فيما ذهب إليه ، لأن قطنا مولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك ومن خاصته . (انظر تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٦٢ ، وأنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية المجلد الثانى ص : ٣٢٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٧) .

(٩٠) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٥ .

(٩١) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٥ .

(٩٢) تاريخ الطبرى ٧ : ١٥٤ ، ١٥٦ .

وعشرين ومائة وَلَّى الوليد نصر بن سيار خراسان كلها ، وأَفْرَدَهُ بها . وقدم يوسف على الوليد ، فاشترى منه نصراً وعماله ، فَرَدَّ الوليد إليه ولاية خراسان[٩٣] . فكتب يوسف إلى نصر يأمره بالقدوم عليه ، فتباطأ نصر ، فاستحثه يوسف ، وهدَّده بالعزل ، فامتثل نصر له ، وسار إلى العراق ، فأتاه نبأ موت الوليد فى بعض الطريق ، فرجع إلى خراسان[٩٤] .

٤ – عنايته بشئون الدولة

استهل الوليد خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتماماً شاملاً ، إذ شرع فى إعداد الخطط وجد فى تنفيذها لتحسين أوضاع المواطنين المعاشية تحسيناً ملحوظاً ، كَسْباً لمودتهم ، وإظهاراً لِفَضْلِهِ على هشام ابن عبد الملك الذى قَتَّر عليهم ، وتحقيقاً لرغبته الصادقة فى الإصلاح .

ولبلوغ هذه الأهداف اتخذ الوليد ثلاثة قرارات : أولها رفع مستوى الخدمات التى تقدمها الدولة للمواطنين فى العاصمة ، فواسى البؤساء والضعفاء والعجزة والقاعدين والمكفوفين من أهل الشام ، ووزع المعونات والهدايا على أطفالهم .

وثانيها : زيادة رواتب المواطنين المسجلين فى ديوان العطاء . فرفع رواتب أهل الأمصار جميعاً عشرة دراهم ، ومنح أهل الشام عشرة دراهم أخرى ، وضاعف الأعطيات والهبات لأقربائه الذين قدموا عليه ، وأعلنوا مساندتهم له ، وأكرم كل من قصدوه وسألوه ، وفى ذلك يقول المدائنى : «لما ولى الوليد أجرى على زمْنَى أهل الشام وعميانهم وكساهم ، وأمر لكل إنسان منهم بخادم . وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة . وزادهم على ما كان يُخْرِجُ لهم هشام ، وزاد الناس جميعاً فى العطاء عشرةً عشرةً ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات ، عشرةً عشرةً لأهل الشام خاصة . وزاد من وفد إليه من أهل بيته فى جوائزهم الضِّعْفَ . . . ولم يقل فى شىء يُسْأَله : لا ، فقيل له : إن فى قولك : أَنْظُرُ عِدَةً ما يُقِيمُ عليها الطالب . فقال : لا أُعَوِّدُ لسانى شيئاً لم أَعْتَدْه»[٩٥] .

وتَأَلَّفَ أهل المدينة ومكة واسترضاهم ، فأعاد إليهم أرزاقهم وحقوقهم المالية التى سَلَبها هشامُ

---

(٩٣) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٤ .

(٩٤) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٦ .

(٩٥) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وانظر أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ، ص : ٣١٨ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٦٨ ، والمختصر فى أخبار البشر ١ : ٢٠٥ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٤ .

وعطّلها حولاً كاملاً ، عقاباً لهم ، لأنهم أعربوا عن تأييدهم لزيد بن على حين خرج عليه بالكوفة[٩٦] .

فأنفق الوليد فى هذه الوجوه والسبل الإصلاحية ما حازَ من ثروة هشام ، وما وَجَدَ فى خزائن الدولة من أموال ، حتى أفلس ، ووقع فى ضائقة خانقة زادها حِدَّةً وخَطراً أنَّ يوسف بن عمر الثقفى تباطأ فى إرسال خراج العراق ، وادَّعى أنه نَقَصَ وانخفض . لأنه لم يستطع إنعاش أحوال العراق الاقتصادية التى نسب إلى خالد بن عبد الله القسرى أنه أفسدها ودَمَّرها تدميراً شديداً لا تَصِحُّ معه ولا تزدهر إلّا بعد وقت طويل . فعزم الوليد على خَلْعِهِ واستعمال عبد الله بن محمد بن الحجاج بن يوسف على العراق[٩٧] . واتهم الوليد يوسف بالتَّسْويفِ والمراوغة والغش والكذب ، لأنه كان يسوق إلى هشام أموالاً طائلةً من خراج العراق ، ولأن ستَّ سنواتٍ من ولايته على العراق تكفى لأن تكون حياته الاقتصادية قد رجعت إلى حالتها الطبيعية السليمة ، وأمره بالوفود إليه بدمشق ، وجمع كل ما يقدر على جمعه من خراج العراق ، لحاجته الماسة إليه ، فقد استنفد كل ما فى خزائن الدولة من أموالٍ فى دَفْعِ رواتب أهل الأمصار وعلاواتهم ، وفى بِرِّ أهل الحرمين ، وفى إكرام ذويه الذين تحاماهم هشام وقطع العطاء عنهم ، فكَتب إلى يوسف : «إنك كتبت إلى أمير المؤمنين تذكر إخراب ابن النصرانية البلاد ، وكنت مع ذلك تحمل إلى هشام ما تحمل . وقد ينبغى أن يكون قد عمرت البلاد حتى رددتها إلى ما كانت عليه . فأشخص إلى أمير المؤمنين مُصَدِّقاً ظنه بك ، ليعرف أمير المؤمنين فضلك على غيرك ، لكفايتك ولما جعل الله بينك وبينه من القرابة ، فإنك خاله ، وأحق الناس بالتوفير عليه ، ولما قد عَلِمْتَ مما أمر به أمير المؤمنين لأهل الشام وغيرهم من الزيادة فى أعطياتهم ، لطول جفوة هشام لهم ، حتى أَضَرَّ ذلك ببيوت الأموال»[٩٨] .

فَصَدَع يوسف بأمره ، وأنقذه من الأزمة ، إذ «استخلف ابن عمه يوسف بن محمد ، وحمل معه الأموال والأمتعة والآنية مالم يُحْمَلْ مثله من العراق قط[٩٩]» .

وَوَضَّح الوليد القَرارَيْن السَّابقين من خطته الإصلاحية فى قصيدة عينية طويلة له ، ضاع أكثرها ، وسلم أقلُّها ، قالها على المنبر بدمشق لما بويع بالخلافة[١٠٠] ، ثم أمر بكتابة نسخ منها ، لِتُوَزَّع

---

(٩٦) الأغانى ٧ : ٢٢ .

(٩٧) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٠٤ .

(٩٨) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٠٤ .

(٩٩) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٠٤ .

(١٠٠) الأغانى ٧ : ٢١ .

على الأمصار المختلفة[١٠١] ، وأرسل نسخة منها إلى المدينة[١٠٢] . وهو يُحَيِّى فيها أهل الأمصار ، ويَعِدُهم بخير عميم ، ويلتزم رواتبهم فى موعدها المحدد الثابت كل سنة ، دون تأخير أو مماطلة ، ويتعهد بزيادة رواتبهم زيادة مُجْزِيَةً ، ويُمَنِّيهم بحياة رغيدةٍ إنْ عاشَ ، وامتدت خلافته ، فهو يقول فيها[١٠٣] :

أَلاَ أيها الرَّكْبُ الْمُخِبُّونَ أَبْلِغُوا ... سَلامِيَ سُكَّانَ البلادِ فأسْمِعُوا[١٠٤]
وقُولُوا أتاكُمْ أَشْبَهُ الناسِ سُنَّةً ... بِوَالِدِهِ فاسْتَبْشِرُوا وتَوَقَّعُوا
سَيُوشكُ إلحاقٌ بكمْ وزيادةٌ ... وأَعْطِيَةٌ تأتى تِباعاً فَتُشْفَعُ
مُحَرَّمُكُمْ دِيوانكُمْ وعَطاؤكمْ ... به يكتبُ الكتَّابُ والكُتْبُ تُطْبَعُ
ضَمِنْتُ لكمْ إنْ لم تُصابُوا بِمُهْجتى ... بأنَّ سماءَ الضُّرِّ عنكمْ ستُقْلِعُ

وأما القَرارُ الثالث الذى اتخذه الوليد لتحسين أوضاع المواطنين بالشام فَيَتَمَثَّلُ فى بناء بعض المنشآت المائية للنهوض بالزراعة ، وتوسيع رقعة الأراضى التى تزرع فى الصيف ، وزيادة محاصيلها ، ورفع دخل العاملين بها . فأقام «جسر الوليد[١٠٥]» على طريق أَذَنَةَ من المَصِّيصة على تسعة أميال . وشَيَّد مشروع أُسَيِّس المائى[١٠٦] ، على بعد ثلاثة وثمانين ميلاً شرقى دمشق ، وهو يشتمل على جهاز للرى يستخدم للانتفاع بمياه الأمطار[١٠٧] .

وعُنِىَ الوليد بشئون الدولة العسكرية ، ولم يُفَرِّط فيها ، ولكن حركة الجهاد كانت قد ضعفت منذ نهاية العقد الأخير من القرن الأول ، وتَحَوَّل دور العرب فى حدودهم الشرقية مع الترك ، وحدودهم الشمالية مع الروم من الهجوم والفتح ، إلى الدفاع والحفاظ على البلدان التى نشروا الإسلام فيها ، وبسطوا سلطانهم عليها . ومع ذلك فإنه تَمَّت فى عهد الوليد بعض الفتوح الجديدة ، وأغار بعض إخوته على الروم غارات كثيرة ناجحة ، ففى خلافة الوليد فتحت قبرص ، إذ «أغزى الوليد بن يزيد أخاه الغمرين يزيد بن عبد الملك ، وأَمَّرَ على جيش البحر الأسود بن بلال المحاربى ، وأمره أن يسير

---

(١٠١) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٩ ، وتاريخ الموصل ص : ٥١ .
(١٠٢) الأغانى ٧ : ٢٢ .
(١٠٣) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٩ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، والأغانى ٧ : ٢١ ، وتاريخ الموصل ص : ٥١ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٦٨ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٤ .
(١٠٤) المخبون : الذين تَخُبُّ بهم دوابهم ، أى تعدو بهم ، وتسرع فى السير .
(١٠٥) معجم البلدان ٢ : ٨٢ .
(١٠٦) معجم البلدان ١ : ٢٧٢ .
(١٠٧) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ : ١٢٧ .

إلى قبرص، فيخيرهم بين المسير إلى الشام إن شاءوا ، وإن شاءوا إلى الروم ، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين ، فنقلهم الأسود إلى الشام ، واختار آخرون أرض الروم ، فانتقلوا إليها[١٠٨] » . وَوَلَّى أخاه الغمر بن يزيد الصائفة غير مرة ، فغنم مالم يغنمه أحدٌ قط . وكانت آخر صوائفه فى سنة ست وعشرين ومائة[١٠٩] .

وعلى قِصَر خلافة الوليد فإن القَرارات الثلاثة الإصلاحية التى ارتآها وَطَّبقها ، وبعض الفتوحات والغزوات المظفرة التى قادها أخوه الغمر تدل على تفكيره فى مشاكل رعيته المالية والاجتماعية والزراعية ، تفكيراً جاداً خلص منه إلى وضع الحلول السريعة للمشاكل العاجلة ، وتدل على اجتهاده فى بعث حركة الفتوح والجهاد وتقويتها[١١٠] ، وحماية ثغور الدولة وحدودها ، وتنفى عنه ما اتهمه به اليعقوبى من أنه كان مهملاً لأمره ، قليل العناية بأطرافه ، متشاغلاً عن أمور الناس[١١١] .

٥ – مبايعته لولديه بولاية العهد

ابتدع معاوية بن أبى سفيان نظام وراثة الخلافة ، فهو أول خليفة أموى فكر فى البيعة لابنه يزيد بولاية أمر المسلمين . ولما كان نظام وراثة الخلافة يناقض مبدأ السيادة العربى الجاهلى ، الذى يعترف بأن تكون السيادة فى عائلة أو عشيرة من القبيلة ، ويراعى النسب والسن والحنكة والنفوذ والكرم ، فيجيز أن تكون السيادة لأقدر أفراد القبيلة ، وكان يخالف مبدأ الشورى الإسلامى الذى يعتمد على اختيار الأمة للخليفة ، ويعتبر إجماعها عليه ممثلاً للمشيئة الإلهية[١١٢] ، فقد لقى معاوية معارضة قوية من أبناء الصحابة والخلفاء الراشدين وبعض أزواج النبى ، إذ أنكروا عليه سعيه لأخذ البيعة لابنه

---

(١٠٨) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٧ ، وانظر أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٣٤ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٤٧ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٧٤ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٥ .

(١٠٩) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٢٢٩ ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٤٦ .

(١١٠) يقول اليعقوبى : «كان عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى ، ويزيد بن عمرار ، لما قتل الحكم بن عوانة (الكلبى) عامل السند ، تنازعا خلافته ، فكتب هشام إلى يوسف بن عمر فى ذلك ، فمال يوسف بالثقفية إلى عمرو بن محمد بن القاسم ، فولاه . فلما ولى الوليد عزل عمرو بن محمد بن القاسم عن السند ، وولى يزيد بن عرار فغزا ثمانى عشرة غزاة» . (انظر تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣٣) . وهو يخالف فى ذلك ما ذكره خليفة ابن خياط من أن عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى ولى السند حتى قتل الوليد . (انظر تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٣) .

(١١١) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣٣ .

(١١٢) مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٦ .

يزيد ، واعتدوه خروجاً على الإسلام ، وتَخَطِّياً لهم ، وتقديماً لابنه عليهم ، وهو أقل منهم فضلاً وخبرة ومقدرة ، ولكن معاوية لم يزل يتأتّى لعقد العهد لابنه يزيد ، حتى إذا مات زياد بن أبى سفيان ، وكان ممن ناهضوا معاوية ، ورفضوا الموافقة على جعل ابنه يزيد قائماً بأمر المسلمين [١١٣] « دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد إنْ حَدَثَ به حَدَثُ الموت ، فيزيد ولى عهد . فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر »[١١٤] ، هم الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عباس ، ومعهم السيدة عائشة[١١٥] .

وبذلك سَنَّ معاوية للخلفاء الأمويين نظام وراثة الخلافة ، وقرر مبدأ ولاية العهد ، « فحول الإمامية إلى ملك كسروى ، والخلافة إلى منصب قيصرى »[١١٦]

واسْتَخْلَف يزيدُ بن معاوية ابنَه معاوية ، وبويع له بدمشق بعد موت أبيه . وتشير الروايات الشيعية الخالصة ، والروايات الأموية التى نقلها الإخباريون المعروفون بميولهم الشيعية إلى أن معاوية بن يزيد أراد أن يلتزم فى سياسته بروح الإسلام ، فأخذ نفسه بسيرة الخلفاء الراشدين ، وبمبدأ الشورى فى الخلافة ، وانتخاب أصلح المسلمين لها ، وانتقد جَدَّه وأباه ، ونَدَّد بسياستهما ، وعاب عليهما عنفهما بالعلويين والزبيريين ، إذ يقول اليعقوبى : إنه خطب الناس فقال : « أيها الناس ، فإنا قد بُلِينَا بكم ، وبُلِيتُم بنا ، فما نجهل كراهتكم لنا ، وطعنكم علينا ، ألا وإن جدى معاوية بن أبى سفيان نازع الأمرَ من كان أولى به منه فى القرابة برسول الله ، وأحق فى الإسلام ، سابق المسلمين ، وأول المؤمنين ، وابن عم رسول رب العالمين ، وأبا بقية خاتم المرسلين ، فركب منكم ما تعلمون ، وركبتم منه مالا تنكرون . . حتى أتته منيته . ثم قُلِّد أبى ، وكان غير خليق للخير ، فركب هواه ، واستحسن خطأه ، وعظم رجاؤه ، فأَخْلَفَهُ الأمل ، وقَصَّرَ عنه الأجل ، فَقَلَّتْ مَنَعَتُهُ ، وانْقَطَعَتْ مُدَّتُهُ ، وصار فى حُفْرته رَهْناً بِذَنْبِه ، وأسيراً بِجُرْمِهِ . ثم بكى وقال : إن أعظم الأمور علينا عِلْمُنا بسوء مَصْرَعِهِ ، وقُبْح مُنْقَلَبِهِ ، وقد قتل عترةَ الرسول ، وأباح الحرمة ، وحرقَ الكعبة ، وما أنا المُتَقَلِّدَ أموركم . ولاَ المُتَحَمِّلَ تبعاتِكم ، فشأنكم أمركم ، فو الله لئن كانت الدنيا مَغْنَماً لقد نِلْنا منها حظاً ، وإنْ تكن شرًّا فحسب آل أبى سفيان ما أصابوا منها[١١٧] .

---

(١١٣) تاريخ الطبرى ٥ : ٣٠٢ ، وانظر تاريخ اليعقوبى ٢ : ٢٢٠ .

(١١٤) تاريخ الطبرى ٥ : ٣٠٣ .

(١١٥) تاريخ الطبرى ٥ : ٣٠٣ ، وانظر الإمامة والسياسة ١ : ١٨٣ .

(١١٦) كتاب استحقاق الإمامة ، برسائل الجاحظ للسندوبى ص : ٢٩٢ .

(١١٧) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٢٥٤ .

ويروى المسعودى أنه « لما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له : اعْهَدْ إلى من رأيت من أهل بيتك . فقال : والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلَّد وِزْرها ، وتتعجَّلونَ أنتم حلاوتها . وأتعجَّلُ مرارتها ؟ اللهم إنى برىء منها ، مُتَخَلٍّ عنها ، اللهم إنى لا أجد نفراً كأهل الشورى ، فأجعلها إليهم يَنْصِبُونَ لها من يَرْوْنَهُ أهلاً لها[١١٨] » .

ويذكر هشام بن محمد الكلبى أن عوانة بن الحكم الكلبى مؤرخ بنى أمية قال : « كان معاوية بن يزيد أمَرَ بعد ولايته فنُودى بالشام : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب ، رحمة الله عليه ، حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم سُنَّةً فى الشورى مثل سُنَّةِ عمر ، فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم »[١١٩] فمات بعد أربعين يوماً من خلافته ، ولم يعهد لأحد بولاية أمر المسلمين ، فاضطرب أمر بنى أمية ، وكثر المطالبون بالخلافة والمتنافسون فيها من الزبيريين والعلويين والخوارج والقيسيين[١٢٠] ، وكاد مروان بن الحكم أن يبايع لعبد الله بن الزبير ، لولا أن عبيد الله ابن زياد قال له : « إنى استَحَيَيْتُ لك مما تريد ! أنت كبيرُ قريش وسيدها ، وتصنع ما تصنعه ! فقال : ما فات شىء بعد ، فقام معه بنو أمية ومواليهم ، وتجمع إليه أهل اليمن[١٢١] ، وبايعوه لأنه « سيد بنى أمية »[١٢٢] . فَمَنَعُوا دولتهم من السقوط .

وأتعظ الخلفاء المروانيون بما حلَّ بالسفيانيين ، فقد انتهت خلافتهم بعد موت معاوية بن يزيد ، وأوشك الحكم الأموى على الانهيار ، لأن معاوية الثانى لم يُرَشِّحْ أحداً من أهله للخلافة ، فاجتهد المروانيون أن يحافظوا على سلطانهم ، فلم يتمسكوا بنظام وراثة الخلافة تمسكا شديداً ، بل مزجوا بينه وبين مبدأ السيادة القبلى ، فكانوا فى بعض الأحيان لا يعهدون بالخلافة لأبنائهم بل لإخوانهم ، إذ عقد سليمان بن عبد الملك العهد لأخيه يزيد بعد عمر بن عبد العزيز ، وبايع يزيد بن عبد الملك بالخلافة لابنه الوليد بعد أخيه هشام بن عبد الملك . وكانوا فى أحيان أخرى لا يسندون ولاية العهد لأبنائهم ولا لإخوانهم ، بل لشخصيات من حفدة مروان بن الحكم ، فقد اصطلحوا على مروان ابن محمد بعد ثورته بإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان ليس من أولاد عبد الملك بن مروان ،

---

(١١٨) مروج الذهب ٣ : ٨٢ .

(١١٩) تاريخ الطبرى ٥ : ٥٣٠ ، وانظر تاريخ اليعقوبى ٢ : ٢٥٤ .

(١٢٠) تاريخ الطبرى ٥ : ٥٣١ .

(١٢١) تاريخ الطبرى ٥ : ٥٣٠ .

(١٢٢) الأخبار الطوال ص : ٢٨٥ ، وشرح نهج البلاغة ٦ : ١٥٦ .

بل ابن أخيه محمد[١٢٣] .

وزاوج الخلفاء المروانيون بين نظام وراثة الخلافة ، ومبدأ الشورى الإسلامى ، الذى يقوم على اختيار أصلح الأمة للخلافة ، فعهد سليمان بن عبد الملك بالخلافة لعمر بن عبد العزيز ، لما اشتهر به من التدين والتقوى ، وقدمه على أخيه يزيد بن عبد الملك ، لأن الروح الإسلامية بدأت تقوى فى شخصيات الخلفاء المروانيين منذ عبد الملك بن مروان[١٢٤] ، وأخذت تضارع الروح العربية ، فانبنت سياستهم على الالتحام الوثيق بين التقاليد العربية والتعاليم الإسلامية[١٢٥] .

وحرص الخلفاء المروانيون أشد الحرص على أن يعقدوا ولاية العهد دائماً لاثنين من أبنائهم ، أو من أبنائهم وإخوانهم ، أو من إخوانهم وغيرهم من حفدة مروان بن الحكم ، ضمانا لبقاء الخلافة فيهم ، وصوناً لها من أن تخرج منهم ، فبايع مروان بن الحكم لِوَلَدَيْهِ عبد الملك ، وعبد العزيز[١٢٦] ، وبايع عبد الملك بن مروان لابْنَيْهِ الوليد وسليمان ، وجعلهما وَلِيَّىْ عهد المسلمين[١٢٧] ، ويروى المدائنى أن عبد الملك أخذ على الوليد وسليمان أن يُبَايعا لأخويهما يزيد ومروان[١٢٨] . وعهد الوليد بن عبد الملك بالخلافة لأخويه سليمان ويزيد[١٢٩] . وبايع سليمان لعمر بن عبد العزيز ، وليزيد ابن عبد الملك[١٣٠] ، واستخلف يزيد بن عبد الملك ابنه الوليد ، وأخاه هشام بن عبد الملك[١٣١] ، وعقد الوليد بن يزيد العهد لِوَلَديه الحكم وعثمان[١٣٢] ، وأخذ يزيد بن الوليد بن عبد الملك البيعة لأخيه إبراهيم ، وجعلهَ وَلِىَّ عهده ، ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم[١٣٣] ، وبايع مروان بن محمد بالخلافة لولديه عبد الله وعبيد الله[١٣٤] .

ولم يكن للخلفاء الأمويين من السفيانيين والمروانيين نظرية واضحة فى الخلافة ، وأسباب

---

(١٢٣) مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٦ .

(١٢٤) تاريخ الدولة العربية ص : ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٥٦ ، ٣٣٤ .

(١٢٥) الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ص : ٢٦ .

(١٢٦) تاريخ خليفة بن خياط ١ : ٣٢٨ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٦١٠ .

(١٢٧) تاريخ خليفة بن خياط ١ : ٣٧٧ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٤١٦ ، ٤٩٨ .

(١٢٨) تاريخ الطبرى ٦ : ٥٣١ .

(١٢٩) تاريخ الطبرى ٦ : ٤٩٩ .

(١٣٠) تاريخ الطبرى ٦ : ٥٥٠ .

(١٣١) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٩ .

(١٣٢) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ .

(١٣٣) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٣٧ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٩٥ .

(١٣٤) تاريخ الطبرى ٧ : ٣١٤ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٢٨١ .

استحقاقهم لها ، فمرةً كانوا يَدَّعون أن الخلافة تناهت من طريق آبائهم وأجدادهم[١٣٥] ، ومرة كانوا يعلنون أنهم اغتصبوها اغتصاباً ، إذ يؤثر عن معاوية أنه خطب فى أهل المدينة فقال : « إنى والله ما وليتها بمحبةٍ علمتها منكم ، ولا مسرةٍ بولايتى ، ولكن جالدتكم بسيفى هذا مجالدة[١٣٦] »

وأشاعوا فى أهل الشام خاصة أن الأمويين استوجبوا الخلافة بقرابتهم من النبى ، وبِكَوْنهم وَرَثَتَهُ الوحيدين الباقين ، يدل على ذلك ما يرويه المسعودى من أن عبد الله بن على العباسى حين خرج فى طلب مروان بن محمد ، واحتل الشام « وَجَّه إلى أبى العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرئاسة من سائر أجناد الشام ، فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابةً ولا أهْلَ بيتٍ يرثونه غيرَ بنى أمية حتى وليتم الخلافة[١٣٧] » !

ولكن الأمويين جميعا اعتمدوا على مبدأ الجبر فى الخلافة اعتماداً قوياً ، إذ استقروا على أن الله اختارهم واختار أولياء عهودهم أوصياء على الناس ، وسلطاناً له عليهم ، وصرحوا بذلك منذ خلافة معاوية ، إذ يقول زياد بن أبى سفيان فى خطبته البتراء لأهل البصرة سنة خمس وأربعين : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذى خوَّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أوجبنا ، ولكم علينا العدل فيما أولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفَيْئَنا بِمُنَاصَحِتِكم[١٣٨] » .

ويقول معاوية بن أبى سفيان فى احتجاجه على خصومه الذين عارضوا مبايعته بالخلافة لابنه يزيد : « إنما هو الملك يؤتيه الله من يشاء[١٣٩] » ، « وإنَّ أمرَ يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم[١٤٠] » . ويقول يزيد بن معاوية فى بعض خطبه بعد موت أبيه : « إن معاوية كان عبداً من عباد الله أكْرَمَهُ الله واسْتَخْلَفَهُ وخَوَّلَهُ ومكَّن له[١٤١] » ، ويقول : « وقد قلدنا الله عز وجل ما كان إليه[١٤٢] » .

---

(١٣٥) هاشميات الكميت ص : ١٢١ .

(١٣٦) العقد الفريد ٤ : ٨١ .

(١٣٧) مروج الذهب ٣ : ٤٣ .

(١٣٨) تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٠ ، وانظر البيان والتبيين ٢ : ٤٩ ، والعقد الفريد ٤ : ١١٢ ، وجمهرة خطب العرب ٢ : ٢٦٠ .

(١٣٩) الإمامة والسياسة ١ : ١٩١ .

(١٤٠) الإمامة والسياسة ١ : ١٨٣ ، ١٨٧ .

(١٤١) الإمامة والسياسة ١ : ٢٠٣ ، وانظر تاريخ الطبرى ٥ : ٣٣٨ .

(١٤٢) الإمامة والسياسة ١ : ٢٠٤ .

وذكر معاوية أن غايته من أخذ البيعة لابنه يزيد هى الحرص على مصلحة المسلمين ووحدتهم . والخوف من اضطرابهم وانقسامهم بعد وفاته ، فإنه كان يقول : « إنى أرهب أن أدع أُمَّة محمدٍ بعدى كالضَّأْن لا رَاعِىَ لها[١٤٣] » ونَوَّه بعض الخلفاء المروانيين بأهمية هذه الغاية ، إذ يقول سليمان ابن عبد الملك فى كتاب عهده : « هذا كتاب » من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إنى قد وَلَّيْتُك الخلافة من بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا وأطيعوا ، واتقوا الله ، ولا تختلفوا فَيُطْمَع فيكم[١٤٤] » .

وأضاف الخلفاء المروانيون إلى ذلك أنهم كانوا يبتغون من المبايعة لأولياء عهودهم بقاء الخلافة فى أولاد مروان بن الحكم ، وحفدته من ذرية ابنه عبد الملك ، والحفاظ على التئام الأسرة المروانية ، إذ يروى البلاذرى أن سليمان بن عبد الملك قال وقد ولى عمر بن عبد العزيز فى مرضه ، ويزيد بعده ، « لولا أنى أخاف تَفَرُّقَ بنى مروان بَعْدى ، ووقوعَ الفتنة بذلك السبب ما ولَّيْتُ يزيد ، ولا قصرت على عمر بن عبد العزيز[١٤٥] » ويروى الطبرى عن رجاء بن حيوة أن سليمان قال له : « كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعلمه والله خَيِّراً فاضلاً مسلمًا ، فقال ، هو والله على ذلك ، ثم قال : والله لِئنَ وَلَّيْتُه ولم أُوَلِّ أحداً سواه لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبداً يلى عليهم إلا أن يُجْعَلَ أحدهُم بعده ، ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم ، قال : فيزيد بن عبد الملك أجْعَلُه بعده ، فإن ذلك مما يُسَكِّنهم ويَرْضَون به[١٤٦] » . ويروى البلاذرى أن عمر بن عبد العزيز قال وهو يحتضر : « لو اخْتَرْتُ للأمة غير يزيد كان أوْلَى ، ولكنى أخاف إن أخْرَجْتُها من بنى عبد الملك أن يقع فى ذلك فتنة وفُرْقَة[١٤٧] » .

واتَّبع الوليد سُنَّةَ أسلافه من الخلفاء المروانيين ، فبايع لولديه الحكم وعثمان بولاية عهده وجعل الحكم ولى عهده الأول[١٤٨] ، وكان الحكمُ بنَ سريَّة أَمَة[١٤٩] ، فخالف الوليد بمبايعته وتقديمه نهج الخلفاء السابقين ، فإنهم كانوا لا يُوَلُّون ابن الأَمَة . . . ولو عهدوا إلى ابن أمة لكان مسلمة

(١٤٣) تاريخ الطبرى ٥ : ٣٠٤ ، وانظر الإمامة والسياسة ١ : ١٨٤ .

(١٤٤) تاريخ الطبرى ٦ : ٥٥١ .

(١٤٥) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ١٨٠ .

(١٤٦) تاريخ الطبرى ٦ : ٥٥٠ .

(١٤٧) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ١٨٠ .

(١٤٨) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٠ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٦٩ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٤١٠ ، ووفيات الأعيان ٧ : ١١١ ، وعيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ حـ ٥ ، الورقة : ١٧ و .

(١٤٩) الأغانى ٧ : ٧١ .

ابن عبد الملك أولاهم بها[١٥٠] » . وكان سليمان بن عبد الملك أراد أن يبايع لابنه داود بعد أخيه أيوب ، فمنعه من عقد ولاية العهد لداود أنه كان ابن أَمَة[١٥١] ، وكانوا يكرهون البيعة لأبناء الإماء ، ولا يُوَلُّون إلّا ابنَ حُرَّة ، فعدل عنه[١٥٢] ، وكانت بنو أمية تتجنَّب ذلك تعظيماً للخلافة ، ولأنهم سقط إليهم أنَّ مُلْكهم يزول على يد خليفة أُمُّه أَمَةٌ[١٥٣] .

وخالف الوليد بأخذه البيعة لولديه الصغيرين صنيع الخلفاء السابقين ، فإنهم كانوا يحجمون عن عقد العهد لأبنائهم الصغار ، ويُؤَجِّلونه حتى يدركوا ، وإن بايعوا لأحدهم فإنهم كانوا يؤخرونه ، ويجعلونه ولىّ عهدهم الثانى ، أما الوليد فأصر على بيعتهما ، ورفض الجدال فيها قبل إبرامها وتأكيدها ، وعاقب من نصحه بالكف عنها ، فقد شاور الوليد سعيدَ بن بيهس بن صهيب الجرمى ، وكان من اليمنية النابهين بدمشق[١٥٤] ، فقال : لا تفعل ، فإنهما غلامان لم يحتلما ، ولكن بَايِع لعتيق ابن عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، فغضب الوليد ، وحبس سعيداً حتى مات فى الحبس[١٥٥] ، فسخط على الوليد بعض بنى أمية وأهل الشام . وانتقدوه وعابوه ، وفى ذلك يقول المدائنى عن بعض موالى الوليد : « دخلت إليه وقد عقد لابنيه بعده ، وقدم الحكم[١٥٦] فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أقول قول الموثوق بنصيحته أو يَسَعُنى السكوت ، فقال ، بل قل قول الموثوق به ، فقلت : إن الناس قد أنكروا ما فعلت ، وقالوا : يُبَايع لمن لم يحتلم ، وقد سمعت ما أكره فيك . فقال : عضُّوا ببظور أمهاتكم ! أَفَأُدْخِلَ بينى وبين ابنى غيرى ، فيلقى منه كما لقيت من الأحول بعد أبى[١٥٧] » !

وليس فيما حمله المؤرخون من أخبار مبايعة الوليد لابنيه الحكم وعثمان ما يكشف عن السبب الذى دفعه إلى أن يعهد بالخلافة لابنه الحكم ، ويقدمه على أخيه عثمان ، مع أن الحكم ابنَ أَمَة ، وعثمان ابن حُرَّة ، فهو ابن عاتكة بنت عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبى سفيان[١٥٨] .

---

(١٥٠) شرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٧ .

(١٥١) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ١١٩ .

(١٥٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٠٣ .

(١٥٣) عيون التواريخ ، مخطوطة المكتبة الظاهرية رقم ٤٥ تاريخ ح ٥ ، الورقة : ٢٠ ظ .

(١٥٤) انظر جمهرة أنساب العرب ص : ٤٥١ .

(١٥٥) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ ، وانظر أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٧ .

(١٥٦) فى رواية المدائنى التى نقلها أبو الفرج عن شيخه الحسن بن على أن الوليد قَدَّم عثمان . (انظر الأغانى ٧ : ٧٠) . وهو خطأ . والصواب أنه قدّم الحكم ، كما فى كتاب العهد نفسه . (انظر الطبرى ٧ : ٢٢٣) .

(١٥٧) الأغانى ٧ : ٧٠ .

(١٥٨) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٠ .

وقد يدل عهده بالخلافة لابن الأَمَة على تطور فى فكرة السياسى ، وفهمه للإسلام وإدراكه للتَّحوُّلِ الاجتماعى ، وما طرأ على معنى النسب من تَغيُّر ، لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم التى دخلت فى الإسلام ، وارتبطت بالعرب ، ووالتهم وَلاءَ حِلْفٍ لا ولاءَ عِتْقٍ ، فانتقل معنى النسب من دائرة العرق والدم الضيقة ، إلى دائرة اللغة والإسلام الواسعة . وربما كان عهده بالخلافة لابن الأمة تحقيقاً لرغبته فى مراعاة الموالى ، وبرهاناً ساطعا على اشتغاله بأمورهم وقضاياهم ، ودليلاً قويًا على احترامه لهم ، وتفكيره فى إشراكهم تدريجياً فى أكبر الوظائف السياسية التى احتكرها العرب ، فَعيَّن ابنه الحكم ولياً لعهده ، ولم يأْبَهْ باحتجاج أبناء عَمَّيْه هشام والوليد عليه ، ولا بانتقاد بعض سادة دمشق له . فتجاوز الخلفاء المروانيين السابقين الذين كانوا يبايعون بولاية العهد لأبنائهم الصرحاء ، ويَتحرَّجون من المبايعة لأبنائهم الهجناء ، على الرغم من كفاية بعضهم ، كمسلمة بن عبد الملك !

وفى شعر الوليد الصحيح الذى رواه المدائنى ما يقطع بأن الوليد لم يكن يرى ابنه الحكم أقل شأنا من أبنائه الآخرين الذين أمهاتهم من الحرائر ، فهو يشيد به ، ويدافع عنه ، مُتَمثلاً ما يدعو الإسلام إليه من المساواة بين الناس استناداً إلى تقواهم ، والمفاضلة بينهم اعتماداً على أعمالهم ، إذ يصفه بأنه أفضل الناس . لنشأته المستقيمة ويفترض أنَّ صلاته فى صغره ينبئ بصلاحه فى كبره ، ويصفه بأنه اتَّقى الله فى أفعاله ، ويرجو أن يؤذن حسن أعماله السابقة بحسن أعماله اللاحقة ، ويؤكد عروبته ، إذ يصفه بأنه سيد من سادات قريش ، اكتسب نصاعة النسب من أبيه ، فهو يقول مادحاً له ومنافحاً عنه[١٥٩] :

طالَ لَيْلِى فَبِتُّ أُسْقَى المُدَاما ... إِذْ أتانى البريدُ يَنْعَى هشاما
وأتانى بِحُلَّةٍ وقَضِيب ... وأتانى بِخاتَمٍ ثُمَّ قامَا
فجعلتُ الوَلِىَّ مِنْ بَعْد فَقْدى ... أَفْضَلَ الناس ناشئاً وغلامَا
ذاكُمُ ابنى وذاكَ قَرْمُ قريش ... خَيْرُ خَلْفٍ[١٦٠] وخَيْرُهُمْ قَدَّامَا

فمبايعة الوليد بالخلافة لا بنيه على صغرهما ، وإيثاره لها على غيرهما من حفدة عبد الملك ابن مروان ، الذين يَكْبَرونهما سناً ، يَعبِّران على حرصه على انتهاء الخلافة إليهما فى يسر . وصفائها لهما دون شقاء ، لأن سوء معاملة هشام له . وهو وليُّ عهد ، قد علَّمته وحنَّكته . وذلك وَجهٌ واضحٌ من رأى الوليد فى عقده العهد لِوَلديه .

---

(١٥٩) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٨ ، وانظر الأغانى ٧ : ١٩ .

(١٦٠) خير خَلْفٍ : أى ممن حسنت أعمالهم السابقة ، أخذه من قوله تعالى: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . قال الزجاج : خلفهم : ما وقع من أعمالهم . (انظر لسان العرب ١٠ : ٤٣٠) .

واختياره الحكم وتقديمه له على أخيه عثمان فى ولايه العهد ، وأولها ابنُ أَمَة ، وثانيهما ابنُ حُرَّة ، يشيران إلى تعمق مبادئ الإسلام لنفس الوليد ، وإلى تحرره من عقدة النَّسَبِ بعض التحرر ، لأنه لم يهمل صفة العروبة فى ابنه الحكم ، بل احتفل بها ، وذهب إلى أنها تحققت لابنه من جهة أبيه وأعمامه القرشيين ، ويرمزان إلى اهتمامه بمشاكل الموالى الاجتماعية والسياسية ، وإلى تقديره ، أنه آنَ الأوانُ ، وتهيأت الأسباب لأن يفسح لهم المجال فى المناصب الرفيعة ، فقد أسلموا وتعربوا وطال الزمن بإسلامهم وتعريبهم ، وأصبحوا جزءاً من المجتمع العربى الإسلامى . وذلك وَجْهٌ ظَنِّى ترجيحىٌّ من وجوه رأى الوليد الذاتى فى عقده العهد لابنه الحكم قبل عثمان ، يستنتج من شعر الوليد الذى أثنى فيه على الحكم .

وأما رأى الوليد الرسمى فى بيعته لولديه بالخلافة فلا يغاير فى دوافعه وأهدافه آراء الخلفاء السابقين . وكتاب العهد الذى وجَّهه الوليد إلى عمال الأمصار ، وسألهم أن يقرأوه على الناس ، ويبايعوهم عليه أهم وثيقة تصَوِّر نظرية الأمويين فى الخلافة بعد تبلورها ونضوجها فى آخر أيامهم ، وتجلو الأسباب التى حملتهم على ابتداع نظام ولاية العهد ، والغايات التى كانوا يبتغونها منه ، وهو ينساب على هذا النحو :

« أما بعد ، فإن الله تباركت أسماؤه ، وجل ثناؤه ، وتعالى ذكره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه ، وجعله دين خِيرَته من خلقه ، ثم اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس . فبعثهم به ، وأمرهم به ، وكان بينهم وبين من مضى من الأمم ، وخلا من القرون قرناً فقرناً ، يدعون إلى التى هى أحسن ، ويهدون إلى صراط مستقيم حتى انتهت كرامة الله فى نُبُوَّته إلى محمد صلوات الله عليه ، على حين دُرُوسٍ من العلم ، وعمى من الناس ، وتَشْتيتٍ من الهوى ، وتَفَرُّقٍ من السُّبل ، وطُموسٍ من أعلام الحق ، فأبان الله به الهُدَى ، وكشف به العمى ، واستنقذ به من الضلالة والرَّدى ، وأبهج به الدين ، وجعله رحمةً للعالمين ، وختم به وحْيَه ، وجمع له ما أكرم به الأنبياء قبله ، وقفَّى به على آثارهم ، مُصَدِّقاً لما نزل معهم ، ومُهَيْمناً عليه ، وداعياً إليه ، وآمراً به ، حتى كان من أجابه من أمته ، ودخل فى الدين الذى أكرمهم الله به ، مُصَدِّقين لما سلف من أنبياء الله فيما يكذبهم فيه قومهم . مُنْتَصحين لهم فيما يُنْهونَه ، ذابين لِحُرَمهم عما كانوا منتهكين ، مُعَظمين منها لما كانوا مُصَغِّرين ، فليس من أمة محمد ﷺ أحد كان يسمح لأحد من أنبياء الله فيما بعثه به مُكذِّباً ، ولا عليه فى ذلك بطاعناً ، ولا لهُ مؤذياً ، بِتسفيهٍ له ، أو ردٍّ عليه . أو جحد ما أنزل الله عليه ومعه ، فلم يبْقَ كافر إلاَّ استحل بذلك دمه ، وقطع الأسباب التى كانت بينه وبينه ، وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتهم .

ثم استخلف الله خلفاءه على منهاج نبوته ، حين قبض نَبِيَّه ﷺ ، وختم به وحيه لإنفاذ حكمه ، وإقامة سننه وحدوده ، والأخذ بفرائضه وحقوقه . تأييداً بهم للإسلام ، وتشييداً بهم لِعُراه ، وتقوية بهم لِقُوى حبله ، ودفعاً بهم عن حريمه ، وعدلاً بهم بين عباده ، وإصلاحاً بهم لبلاده ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « ولولا دفْعُ الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » ، فتتابع خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه ، واستخلفهم عليه منه ، لا يتعرَّض لحقهم أحد إلاَّ صرعه الله ، ولا يفارق جماعتهم أحدٌ إلا أهلكه الله ، ولا يستخفُّ بولايتهم ، ويتهم قضاء الله فيهم أحد إلا أمكنهم الله منه ، وسلَّطهم عليه . وجعله نكالاً وموعظة لغيره ، وكذلك صنع الله بمن فارق الطاعة التى أمر بلزومها . والأخذ بها . والأثرة لها . والتى قامت السموات والأرض بها . قال الله تبارك وتعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها ولـلأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أَتينا طائعين) ، وقال عز ذكره : (وإذ قال ربُّك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً قالوا أتَجْعَلُ فيها من يفسدُ فيها ويسفكُ الدماء ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّسُ لك قال إنى أعلم مالا تعلمون) .

فبالخلافة أبقى على من أبقى فى الأرض من عباده ، وإليها صَيَّره ، وبطاعة من ولاَّه إياها سعد من ألهمها ونصرها . فإن الله عز وجل علم أن لا قوام لشىء . ولاصلاح له إلا بالطاعة التى يحفظ الله بها حقَّه ، ويُمْضى بها أمره ، ويُنْكِلُ[١٦١] بها عن معاصيه ، ويوقف عن محارمه ، ويذب عن حرماته ، فمن أخذ بحظه منها كان لله وَلِيًّا ولأمره مُطِيعًا ، ولرشده مُصيباً ، ولعاجل الخير وآجله مخصوصاً ، ومن تركها ورغب عنها ، وحَادَّ الله فيها أضاع نَصِيبَه ، وعصى ربه ، وخسر دنياه وآخرته ، وكان ممن غلبت عليه الشِّقْوة ، واستَحْوذت عليه الأمور الغاوية ، التى تُورِدُ أهلها أفظع المشارع[١٦٢] ، وتقودهم إلى شر المصارع ، فيما يُحِلُّ الله بهم فى الدنيا من الذلة والنقمة ، ويُصَيِّرهم عندهم من العذاب والحسرة .

والطاعة رأس هذا الأمر وذروته وسنامهُ ومِلاكُهُ وزمامُه وعِصْمَتُه وقوامُه ، بعد كلمة الإخلاص التى مَيَّز الله بها بين العباد . وبالطاعة نال المفلحون من الله منازلهم ، واستوجبوا عليه ثوابهم ، وفى المعصية مما يحلُّ بغيرهم من نقماته ، ويصيبهم عليه ، ويحقُّ من سخطه وعذابه ، وبترك الطاعة والإضاعة لها ، والخروج منها ، والإدبار عنها ، والتَّبَذُّل للمعصية بها ، أهلك الله من ضلَّ وعتَا ، وعمى وغلا ، وفارق مناهج البر والتقوى .

---

(١٦١) أنكله عن حاجته : دفعه عنها .

(١٦٢) المشارع : جمع مشرعة ، وهى مورد الشاربة .

فالزموا طاعة الله فيما عراكم ونالكم ، وألمَّ بكم من الأمور ، وناصحوها واستوثقوا عليها ، وسارعوا إليها وخالصوها ، وابْتَغُوا القُرْبَةَ إلى الله بها ، فإنكم قد رأيتم مواقع الله لأهلها فى إعلائه إياهم ، وإفلاجه[١٦٣] حجتهم ، ودفعه باطل من حَادَّهم ونَاوَأَهُم وسَامَاهم ، وأراد إطفاء نور الله الذى معهم . وخُبِّرْتُم مع ذلك ما يصير إليه أهل المعصية من التوبيخ لهم ، والتقصير بهم ، حتى يؤول أمرهم إلى تبار وصغار ، وذلة وبوار ، وفى ذلك لمن كان له رأىٌ وموعظة عبرةٌ ينتفعُ بواضحها ، ويتمسَّكُ بِحُظْوَتها ، ويعرف خيرة قضاء الله لأهلها .

ثم إن الله – وله الحمد والمن والفضل – هدى الأمة لأفضل الأمور عاقبةً لها فى حَقْنِ دمائها ، والتِئام أُلْفتها ، واجتماع كلمتها ، واعتدال عمودها ، وإصلاح دَهْمَائها ، وذخَر النعمة عليها فى دنياها ، بعد خلافته التى جعلها لهم نظاماً ، ولأمرهم قواماً ، وهو العهد الذى أَلْهَم الله خلفاءه توكيده والنظر للمسلمين فى جسيم أمرهم فيه ، ليكون لهم عندما يحدث بخلفائهم ثِقةً فى المَفْزَع ، وملتجأً فى الأمر ، ولَمًّا للشَّعَثِ ، وصلاحاً لذات البين ، وتثْبِيتاً لأرجاء الإسلام ، وقَطْعاً لِنَزَغات[١٦٤] الشيطان ، فيما يَتَطَلَّعُ إليه أولياؤه . ويُوئِسُهم عليه من تلفِ هذا الدين وانصداع شعب أهله ، واختلافهم فيما جمعهم الله عليه منه ، فلا يُريهم الله فى ذلك إلاَّ ما ساءهم ، وأكذب أمانِيَّهم ، ويَجِدُون الله قد أحكم بما قضى لأوليائه من ذلك عُقَد أمورهم ، ونَفَى عنهم من أراد فيها إدْغالاً[١٦٥] أوبها إغلالاً[١٦٦] ، أو لِمَا شَدَّد الله منها تَوْهِيناً ، أوفيما تولَّى الله منها اعتماداً ، فأكمل الله بها لخلفائه وَحِزْبه البرَّ الذين أَوْدَعَهُمْ طاعته أحسنَ الذى عَوَّدهم ، وسبَّبَ لهم من إعزازه وإكرامه وإعلائه وتمكينه ، فأمر هذا العهد من تمام الإسلام ، وكمال ما استوجب الله على أهله من الْمِنَنِ العظام ، ومما جعل فيه لمن أجراه على يديه ، وقضى به على لسانه ، ووَفَّقه لمن وَّلاه هذا الأمر عنده أفضل الذُّخْر ، وعند المسلمين أحسن الأثر فيما يؤثر فيهم من منفعته ، ويتسع لهم من نعمته ، ويَستندون إليه مِن عِزّه ، ويدخلون فيه من وَزْرِه[١٦٧] الذى يجعل لهم به مَنَعة ، ويُحْرِزُهم[١٦٨] به من كل مهلكة ، ويجمعهم به من كل فرقة ، ويقمع به أهل النفاق ، ويعصمهم به من كل اختلاف وشقاق فاحمدوا الله ربكم الرؤوف بكم ، الصانع لكم فى أموركم على الذى دَلكم عليه من هذا

---

(١٦٣) أفلج الله حجته : نصرها وأظهرها .

(١٦٤) النزغات : جمع نازغة ، وهى الوسوسة ، من نزغ الشيطان بينهم : إذا أفسد وأغرى .

(١٦٥) الإدغال : من أدغل فى الأمر : إذا أدخل ما يفسده ويخالفه .

(١٦٦) الإغلال : الخيانة .

(١٦٧) الوَزَرُ : الملجأ .

(١٦٨) أحرز الشىء : حفظه وصانه .

العهد ، الذى جعله لكم سكناً ومُعَوَّلاً تطمئنون إليه ، وتستظلون فى أفنانه ، ويَسْتَنْهِجُ[١٦٩] لكم به من مَثْنَى أعناقكم ، وسمات وجوهكم ، وملتقى نواصيكم فى أمر دينكم ودنياكم ، فإن لذلك خطراً عظيماً من النعمة ، وإن فيه مِن الله بلاءً حسناً فى سعة العافية ، يعرفه ذوو الألباب والنِّيَّات المُرَيْثُون[١٧٠] من أعمالهم فى العواقب والعارفون منار مناهج الرشد ، فأنتم حقيقون بشكر الله فيما حفظ به دينكم وأمر جماعتكم من ذلك ، جديرون بمعرفة كُنْهِ واجب حقه فيه ، وحمده على الذى عزم لكم منه ، فلتكنْ منزلة ذلك منكم ، وفضيلته فى أنفسكم على قدر حسن بلاء الله عندكم فيه ، إن شاء الله ، ولا قوة إلّا بالله .

ثم إن أمير المؤمنين لم يكن منذ استخلفه الله بشىء من الأمور أَشَدَّ اهتماماً وعناية منه بهذا العهد ، لِعِلْمِه بمنزلته من أمر المسلمين ، وما أراهم الله فيه من الأمور التى يغتبطون بها ، ويكرمهم بما يقضى لهم ، ويختار له ولهم فيه جهده ، ويستقضى له ولهم فيه إلَهَهُ وَوَلِيَّهُ ، الذى بيده الحكم ، وعنده الغيب ، وهو على كل شىْء قدير ، ويسأله أن يُعِينَه من ذلك على الذى هو أرشد له خاصة وللمسلمين عامة .

فرأى أمير المؤمنين أن يعهد لكم عهداً بعد عهد ، تكونون فيه على مثل الذى كان عليه من قبلكم ، فى مُهْلَة من انفساح الأمل ، وطمأنينة النفس ، وصلاح ذات البين ، وعِلْمِ موضع الأمر الذى جعله الله لأهله عصمة ونجاة وصلاحاً وحياةً ، ولكل منافق وفاسق يحب تلف هذا الدين وفساد أهله وَقْماً[١٧١] وخسارةً وقَدْعاً[١٧٢] . فَوَلَّى أمير المؤمنين ذلك الحكم ابن أمير المؤمنين ، وعثمان ابن أمير المؤمنين من بعده ، وهما ممن يرجو أمير المؤمنين أن يكون الله خَلَقَه لذلك وصاغه ، وأكمل فيه أحسن مناقب من كان يوليه إياه ، فى وفاء الرأى ، وصحة الدين ، وجزالة المروءة ، والمعرفة بصالح الأمور ، ولم يألكم أمير المؤمنين ولانفسه فى ذلك اجتهاداً وخيراً .

فبايعوا للحكم ابن أمير المؤمنين باسم الله وبركته ، ولأخيه من بعده على السمع والطاعة ، واحتسبوا من ذلك أحسن ما كان الله يُرِيكم ويُلِيكُم[١٧٣] ويُعَوِّدُكُم ويُعرفكم فى أشباهه فيما مضى ، من اليسر الواسع ، والخير العام ، والفضل العظيم الذى أصبحتم فى رجائه وخفضه وأمنه ونعمته ،

---

(١٦٩) استنهج الطريق : وضح واستبان .

(١٧٠) المريثون : من رَبَّأ فى الأمر : إذا نظر فيه وتعقبه ، ولم يعجل بالجواب .

(١٧١) الوقم : الإذلال .

(١٧٢) القدع : الكَفُّ والمنع .

(١٧٣) يليكم : يبين لكم ويعرفكم .

وسلامته وعصمته . فهو الأمر الذى استبطأتموه واستسرعتم إليه ، وحمدتم الله على إمضائه إياه ، وقضائه لكم ، وأحدثتم فيه شكراً ، ورأيتموه لكم حظاً ، تستبقونه وتجهدون أنفسكم فى أداء حق الله عليكم ، فإنه قد سبق لكم فى ذلك من نعم الله وكرامته ، وحسن قَسْمِه ما أنتم حقيقون أن تكون رغبتكم فيه ، وحدبكم عليه ، على قدر الذى أبلاكم الله ، وصنع لكم منه .

وأمير المؤمنين مع ذلك إن حدث بواحد من وَلِيَّىْ عهده حَدَثٌ أولى بأن يجعل مكانه وبالمنزل الذى كان به من أحب أن يجعل من أمته أو ولده . ويقدمه بين يدى الباقى منهما إن شاء الله ، أو أن يؤخره بعده . فأعلموا ذلك وافهموه .

نسأل الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم أن يبارك لأمير المؤمنين ولكم فى الذى قضى به على لسانه من ذلك وقَدَّر منه ، وأن يجعل عاقبته عافيةً وسروراً وغبطة ، فإن ذلك بيده ولا يملكه إلا هو ، ولا يُرْغَب فيه إلا إليه . والسلام عليكم ورحمة الله[١٧٤] » .

فهو يتأثر فى الكتاب كله بمذهب الجبر ، وما أحاط به الأمويون خلافتهم من قداسة ، وما أضفوه عليها من صبغة دينية ، وما ادعوه من أنهم يمثلون إرادة الله ومشيئته[١٧٥] . فالله اصطفى محمداً ليكون آخر الرسل ، وخاتم الأنبياء ، واختار الخلفاء الراشدين بعده ، صيانةً للإسلام ، ونصرةً له ، وحمايةً لأهله ، فلم يخرج عليهم خارجٌ ، ولم يَثِبْ بهم واثبٌ إلا أرْداهُ الله ، لأن الخلافة قاعدة من قواعد الإسلام ، ومن أطاع الخلفاء ، أطاع الله ، واستأْهلَ ثَوابَه ، ومن عصاهم ، عصا الله واستَحقَّ عقابه .

ثم تقلد الأمويون الخلافة بأمر الله ، وكانوا حريصين على الإسلام ، مشتغلين بما ينفع المسلمين . فهداهم الله إلى ولاية العهد ، تمكيناً للإسلام ، وتأْميناً للمسلمين . وكانت ولاية العهد فى نظر الأمويين جزءاً من الإسلام ، بل من تمام الإسلام ، وكمال ما استوجب الله على أهله من المنن العظام ، فرضى الله عَمَّنَ فكَّر فيها وابْتَدعها من الخلفاء الأمويين !

وقد اهتم الوليد منذ تولى الخلافة بولاية عهد المسلمين ، واستخار الله فيها ، فوفقه إلى المبايعة بها لولديه واحداً بعد الآخر ، حتى يعرف المسلمون موضع الأمر ، ومستقر الخلافة . فتطمئن نفوسهم إلى مستقبلهم ، ولا تتفرق كلمتهم ولا تتشتت صفوفهم بعد وفاة الوليد .

وواضح أن الوليد تمسك بنظام ولاية العهد ، وأكّده ، ونَوَّهَ بأهميته للمسلمين ، وأشاد بمعاوية ابن أبى سفيان الذى اخترعه للخلفاء الأمويين ، وشرعه لهم ، وحذَّر من المماراة فى أهميته ، واعتبر

(١٧٤) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٩ - ٢٢٤ .

(١٧٥) السيادة العربية ص : ٧١ .

الاتفاق عليها ، والاعتقاد بها ، ركناً من أركان الإسلام ، وأساساً من أسس الإخلاص فى الإيمان ، ومظهراً من مظاهر الصلاح فى العمل .

وأعاد الوليد فى كتاب البيعة الرسمى بعض وجوه رأيه الذاتى فى تفضيله ابنه الحكم على أخيه عثمان ، لأنه كان فيما يبدو مصمماً على إنفاذ قراره بالمبايعة لأول مرة لِوَلِيِّ عَهْدٍ أمُّه أَمة ، تطبيقاً لما كان يتوخى من إصلاح سياسى ، يؤدى إلى التَّوازن بين العناصر والقوى فى المجتمع الأموى العربى الإسلامى ، ولأنه كان يعرف خطورة قراره ، وما يثير عليه من نقمة العرب . فقد ذهب الوليد إلى أنه خص الحكم وعثمان بولاية العهد . لأنه كان يظن أنهما أَهْلٌ لما خَصَّهما به ، بل ممن خلقه الله لذلك ، وصاغه له ، وأكمل فيه أحسن مناقب من كان يُوَليه إياه ، فى وفاء الرأى وصحة الدين ، وجزالة المروءة ، والمعرفة بصالح الأمور . وهو ينتصر بذلك لابنه الحكم أكثر من انتصاره لابنه عثمان ، فإنه يركز على الصفات الإسلامية تركيزاً شديداً ليمنع أهل بيته من بنى أمية ، وغيرهم من سادة العرب بدمشق من الاستمرار فى مهاجمته . لتقديمه ابنَ الأَمَة على ابن الحُرَّة فى ولاية العهد .

٦ – خلافته وسياسته فى الشعر الأموى

فرح عَدَدٌ من الشعراء بقيام الوليد بالخلافة ، فوفدوا إليه مُهنئين مباركين ، وَنَوَّهوا بشخصيته وصفاته العربية والإسلامية وأثنوا على إصلاحاته الاجتماعية ، وتغييراته الإدارية ، وقراراته السياسية . وأقام بعضهم عنده زمناً طويلاً ، ولزمه غيرهم ، ولم يفارقه إلّا قليلاً .

وقد أهمل الرواة والعلماء المتعصبون على الوليد وبنى أمية كثيراً من الشعر الذى مُدِح به الوليد ، فحذفوا منه قصائد بِرُمَّتها . وحملوا من قصائد أخرى أبياتاً معدودات ، وأسقطوا سائرها . ومن الشعراء الشاميين الذين ذكر القدماء أنهم أطافوا بالوليد ، وأفاضوا فى تمجيده ، وضاعت كل مدائحهم فيه الحسن بن عبيد الكلابى[١٧٦] وكان من أصدقاء الوليد . ومنهم إياس بن الوليد الفزارى[١٧٧] وكان من أصحاب الوليد ، ومن أشدهم وفاءً له فى حياته وبعد مماته .

ومن شعراء المدينة الذين اتصلوا بالوليد . وأشادوا به ، وفُقِدَت مدائحهم له إسماعيل بن يسار النسائى[١٧٨]

---

(١٧٦) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٣٠٨ .

(١٧٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ١٨٥ .

(١٧٨) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٢٢٩ ، والأغانى ٤ : ٤٢٤ .

ومن شعراء اليمامة الذين انقطعوا إلى الوليد ، وضاعت قصائدهم فى مديحه النابغة الشيبانى . ويقول أبو الفرج : إنه كان حَفِياً بيزيد بن عبد الملك ، فجفاه هشام ، فلم يزل طول أيامه طريداً ، حتى وَلى الوليد بن يزيد ، فوفد إليه ، ومدحه مدائح كثيرة ، فأجزل صلته[١٧٩] » ومع ذلك فإن أبا الفرج لم يَرْوِ شيئاً من القصائد الكثيرة التى مدح بها النابغةُ الوليد ، كما أن ديوان النابغة لا يتضمن شيئاً من الشعر فى مديح الوليد !

ومن شعراء الكوفة الذين نص أبو الفرج وغيره من القدماء على أنهم لاذوا بالوليد ، ونادَمه أغلبهم ، ومَدَحُوه كُلُّهم ، ولم تصل قصائدهم فى مديحه مطيع بن إياس[١٨٠] وحماد عجرد[١٨١] وشراعة بن الزندبود[١٨٢] والحسين بن مطير الأسدى[١٨٣] .

وضاعت أيضا قصائد بعض الشعراء المُقِلّين غير المعروفين فى مديحه ، منهم شاعر اسمه ذو الإصبع ، ذكر الآمدى أنه وفد إلى الوليد ومدحه[١٨٤] .

ووصلت قصائد مُطَوَّلة كاملةً غيرَ منقوصة ، لشعراء من أمصار شتى فى مديح الوليد ، أو فى تبصيره بأعدائه ، أو الثناء على سياسته الحكيمة . ومن شعراء الشام الذين أحاطوا بالوليد ، وأخلصوا له ، وكانوا أنصاره شُقْرَان مولى بنى سلامان من قضاعة[١٨٥] وهو « شاعر من شعراء بنى أمية كان مداحاً للوليد بن يزيد[١٨٦] » ولم يبق من شعره الذى مدح به الوليد شىء ، ولكن ابن عساكر احتفظ له بقصيدة يحرض فيها الوليد بن يزيد على ابن عمه يزيد بن الوليد ، ويحثه على الفتك به ، والبطش بكل من انضم إليه ، فهو أَلَدُّ خصوم الوليد ، وأصَحُّهم عزماً على خلعه وقتله ، سعى سرًّا لتأليب الناس على الوليد ، ولم يزل يستعديهم عليه حتى ظهر أمره وعرف ، فلا فائدة من التغاضى عنه ، والتهوين من شأنه ، ولا خير فى أخذه باللين . واستتابته بالكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، يقول[١٨٧] :

---

(١٧٩) الأغانى ٧ : ١٠٩ .

(١٨٠) الأغانى ١٣ : ٢٧٦ . والديارات ص : ٢٥٢ .

(١٨١) الأغانى ١٤ : ٣٣٥ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٤٢٤ .

(١٨٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٢٩٧ .

(١٨٣) الأغانى ٦ : ٧١ ، ١٦ : ١٧ .

(١٨٤) المؤتلف والمختلف ص : ١٧١ .

(١٨٥) لسان العرب ٦ : ٩٩ ، وانظر الأغانى ٢ : ٣٠٦ .

(١٨٦) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٢٥ .

(١٨٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٢٥ .

إنَّ الـذى رَبَّصَـهـا أَمْـرَهُ سِرًّا وقد بَيَّنَ للسَّامع (١٨٨)
لـكـالتى نَـحَّسـهـا أهْـلُـهـا عَذْراءَ بكراً وهى فى التَّاسِع (١٨٩)
فـاذكـرْ من الأمر قَرادِيدَهُ بالحَزْمِ والقوَّةِ أو صَانِع (١٩٠)
حتى تَرىَ الأَخْدَعَ مذلولاً يَلْتَمسُ الفَضْلَ إلى الخادِعِ (١٩١)
كُنَّا نُداريها فَقَدْ مُزِّقَتْ واتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ
كالثَّوْبِ إنْ أَنْهَجَ فيه البِلَى أَعْيَا علَى ذى الحِيلَةِ الصَّانِعِ (١٩٢)

ومنهم أبو معدان . وهو يقول معرباً عن ابتهاج الناس بتصميم الوليد على عقد العهد لابنيه الحكم وعثمان ، فإنهم كانوا يتوقون إعلانه لذلك ، وينتظرونه ويترقبونه ، وإنهم ليرجون صادقين غير منافقين أن يتوارث أبناء الوليد الخلافة واحداً بعد الآخر ، فيكون لابنه سعيد حظ فيها ، على نحو ما كان يزيد ابن عبد الملك يَرْنُو إلى أن تنتقل الخلافة منه إلى ابنه الوليد . وقد استاءوا حين خرجت الخلافة من يزيد إلى أخيه هشام . فلما رجعت إلى الوليد بن يزيد سُرُّوا به . وإنهم مجمعون على استحقاق أولاد يزيد بن عبد الملك وحفدته للخلافة ، فهم أربابها ، وهم ممن استقام حكمهم ، وعَمَّ خيرهم . وهم ينصحون الوليد أن يحرم من الخلافة أقرباءه الأدنين ، حتى يَقْنَط منها الطامعون فيها ، ولا يُغَالِبُوا أبناءه عليها (١٩٣) .

نُؤَمِّلُ عُثْمَان بعدَ الوَلِيـ ـدِ أَوْ حَكَماً ثمَّ نَرْجُو سعيدَا
كما كانَ إذْ ذاك فى مُلْكِهِ يزيدُ يُرَجَّى لتلك الوَليدَا
ملوكٌ تَوارَثُ فى مُلْكِها وأفعالُها العُرْفُ مَجْداً تَلِيدَا
علىَ أنَّها شَسَعَتْ شَسْعَةً فنحنُ نُؤَمِّلُها أنْ تَعُودا (١٩٤)
فإنْ هىَ عادتْ فأَقْصىَ القَريبَ عنها لِيُؤْيِسَ منها البَعِيدَا

وروى البلاذرى (١٩٥) وأبو الفرج (١٩٦) عن المدائنى أن صاحب القصيدة هو الوليد بن يزيد . أما

---

(١٨٨) التربص : الانتظار والمكث والتلبث . وربص بالشيء ربصاً : انتظر به خيراً أو شراً .

(١٨٩) نَحَّس الأخبار وتَنَحَّسها واستَنْحَسها : تَنَسَّمها وتَجَسَّسها وطلبها وتَتَبعها بالاستخبار سرًّا وعلانية .

(١٩٠) قراديد الأمر : شدته وصعوبته .

(١٩١) يقول ابن عساكر : « المذلول : الذى ذل وانقاد وخضع . أشار على الوليد أن يقتل الذين شغبوا عليه ، حتى يطلب المخدوع الفضل إلى من خدعه ويرضى بالمخلص .

(١٩٢) أنهج : انتشر . (١٩٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ١٧٧ .

(١٩٤) شسعت : بعدت .

(١٩٥) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣٢٧ .

(١٩٦) الأغانى ٧ : ٧١ .

الطبرى فلم يذكر أنها للوليد ، بل قال : إنها لشاعر[١٩٧] ولم يُسَمِّ اسمه . وأما ابن عساكر فنسبها لأبى معدان ، وهو من شعراء الشام . ومضمون القصيدة يُرَجِّحُ أنها ليست للوليد ، فهو يُبَيِّنُ موقف الناس من خلافة يزيد بن عبد الملك ، ويُوضِّحُ رغبتهم فى بقاء الخلافة فى ذُرِّيته .

ومن شعراء المدينة المُقِلين الذين زاروا الوليد ومَدحُوه سعيد بن مرة بن جبير الكندى[١٩٨] ، مَوْلَى آل كثير بن الصلت بن معد يكرب بن وَلِيعَة الكندى[١٩٩] وفد على الوليد ، فعرض له فى يوم من أيام الربيع ، وقد خرج إلى متنزه له ، فصاح به : يا أمير المؤمنين ، وَافِدُك وزائرُك ومُؤَمِّلك ، فتبادر الحرس إليه لِيَصُدُّوه عنه ، فقال : أُدْنُ إلىَّ ، فَدَنا ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من أهل الحجاز شاعر ، قال : تريد ماذا ؟ قال : تسمع منى أربعة أبيات . قال : هات . فأنشده يُنَوِّه بكرمه الذى دَوَّت شهرته فى البلاد ، ويَسْتَمِيحُه :

شِمْنَ المَخايِلَ نَحْوَ أَرْضِكَ بالحَيَا ... ولَقِينَ رُكْبَاناً بِعُرْفِك قُفَّلاَ[٢٠٠]
فَعَمَدْنَ نَحْوَكَ لم يُنَخْنَ لِحاجَةٍ ... إلاَّ وُقُوعَ الطَّيْرِ حتى تَرْحَلاَ
يَعْمِدْنَ نَحْوَ مُوَطَّئٍ حُجُراتُهُ ... كَرَماً ولم تَعْدِلْ بِذَلِك مَعْدلاَ
لاَحَتْ لها نِيرانُ حَيَّىْ قَسطَلٍ ... فاخْتَرْنَ نَارَكَ فى المنازل مَنْزِلاَ

فقال : أُنْجِحَتْ وِفادتك ، وَوَجَبَتْ ضِيَافتك ، أعطوه أربعة آلاف دينار ، فَقَبَضها وَرَحَلَ[٢٠١] .

وابن هرمة القرشى هو أكبر شعراء المدينة الذين وفدوا على الوليد ، وتَغَنَّوا بفضله وخيره . ويقول ابن عساكر : « إنه قدم دمشق ، وامتدح الوليد بن يزيد ، فأجازه وارتبطه عنده[٢٠٢] » ولم يسلم من شعره الذى أشاد فيه بالوليد إلاَّ بيتان ينفى فيهما عنه ما رُمى به من التفريط فى شئون الأمة ، والاستخفاف بالدين ، إذ ينعته بأنه « خليفة حق » أَعَزَّ المسلمين وَوَحَّدهم بعد تَخَاذُلٍ وتنابُذٍ ، وناضل عن الإسلام ، ومكن له فى الأرض ، يقول[٢٠٣] :

---

(١٩٧) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٩ .
(١٩٨) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ١١٣ .
(١٩٩) جمهرة أنساب العرب ص : ٤٢٨ .
(٢٠٠) شام السحاب والبرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يمطر . والمخايل : جمع مخيلة ، وهى السحابة .
(٢٠١) الأغانى ٧ : ٢٤ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ١١٣ .
(٢٠٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٢٣٤ .
(٢٠٣) الأغانى ٤ : ٣٩٦ ، وديوانه ص : ٢١١ .

وكانَت أمورُ النَّاسِ مُنْبَتَّةَ القُوَى فَشَدَّ الوليدُ حينَ قامَ نِظَامَها
خَلِيفةُ حَقٍّ لا خَلِيفَةُ بَاطلٍ رَمَى عَنْ قَناةِ الدِّينِ حَتَّى أَقَامَها

وقصد الوليد من شعراء الطائف يزيد بن ضَبَّة مَوْلَى ثقيف . وكان مَدَّاحاً ليزيد بن عبد الملك مختصًّا بالوليد فى حياة أبيه[٢٠٤] . فَطَرَدَه هشام وشَرَّدَه ، فأشار عليه الوليد بمغادرة دمشق ، «فلم يزل مقيماً بالطائف إلى أن وَلِىَ الوليد بن يزيد الخلافة ، فوفد إليه ، فلما دخل عليه ، والناس بين يديه جُلوسٌ ووُقُوفٌ على مَرَاتِبهم ، هَنَّأَه بالخلافة ، فأدناه الوليد ، وضَمَّه إليه ، وقَبَّل يزيد بن ضَبَّة رِجْلَيْه والأرضَ بين يَدَيْه . فقال الوليد لأَصْحابه : هذا طَرِيدُ الأَحْوَل لِصُحبَتِه إياى ، وانقطاعه إلىَّ . فاستأذن يزيد فى الإنشاد ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، هذا اليوم الذى نهانى عَمُّك هشام عن الإنشاد فيه ، قد بَلَغْتُه بعد يأس ، والحمد لله على ذلك ، فأذن له[٢٠٥] » ، فقال من قصيدة طويلة يَتَغَنَّى فيها بمكانة الوليد السامية ، وشرفه وسماحته ، وكثرة عطاياه ، وما يهب للناس من قطعان الإبل ، وقناطير الذهب ، ويثنى على تقواه ومساعيه الحميدة ، وسهره على مصالح الناس ، وعَدْلِه بين الرعية[٢٠٦] :

لِتَعْتَامَ الوليدَ القَرْ مَ أهل الجُودِ والخيرِ[٢٠٧]
كَريمٌ يَهَبُ البُزْلَ مع الخُور الجَراجِيرِ[٢٠٨]
وَيُعطى الذَّهَبَ الأَحْمَـ رَ وَزْناً بالقَناطيرِ
بَلَوْنَاهُ فأَحْمَدنا هُ فى عُسْرٍ ومَيْسُورِ
كَرِيمُ العُودِ والعُنْصُـ رِ غَمْرٌ غَيْرُ مَنْزُورِ
لهُ السَّبْقُ إلَى الغَايا تِ فى ضمِّ المَضامِيرِ
إمامٌ يُوضحُ الحَقَّ لـه نُورٌ على نُورِ
مَقَالٌ من أخى وُدٍّ بِحِفْظ الصِّدْقِ مَأْثُورِ
بإحْكامٍ وإخلاصٍ وتَفْهِيمٍ وتَحْبِيرِ

فأمر الوليد بأن تُعَدَّ أبيات القصيدة ، ويُعْطَى لكل بَيت ألف درهم ، فَعُدَّت فكانت خمسين

---

(٢٠٤) الأغانى ٧ : ٩٥ .
(٢٠٥) الأغانى ٧ : ٩٧ .
(٢٠٦) الأغانى ٧ : ٩٩ .
(٢٠٧) تعتام : تصطفى وتقصد مختارة . والخير : الكرم والخَيِّر والشرف ، والأصل .
(٢٠٨) البزل : جمع بازل وهو البعير أو الناقة التى استكملت السنة الثامنة ، وطعنت فى التاسعة وفَطَرَ نابها .
والخور : النوق الغزيرة اللبن . والجراجير : الكرام من الإبل .

بيتاً ، فأُعْطِى خمسين ألفاً : فكان أول خليفة عَدَّ أبيات الشعر وأَعْطَى على عددها لكل بيت ألف درهم .

وطريح بن إسماعيل الثقفى هو أشهر شعراء الطائف الذين انقطعوا إلى الوليد ، ونشطوا فى الدعاية له ، واسترسلوا فى التنويه به ، حتى «استفرغ مديحه كله وعامة شعره فيه»[٢٠٩] . وله يقول طريح مسروراً بعهده ، ومدافعاً عن سياسته ، ومُجلاً لشخصيته ، فإن الناس من ثقيف وغيرها كانوا راضين عن الوليد ، مطيعين له ، فرحين به ، لأنه نَفَّذ ما وعدهم به عندما وَلِىَ الخلافة ، فأَعَزَّ ضعيفهم ، وأنصف مظلومهم ، وأَمَّن خائفهم ، وأَغنَى فقيرهم ، وطَهَّر نفوسهم ، وأَلَّف بينهم ، وحَمَى ديارهم ، فإذاهم بسياسته أمة واحدة متكاتفة متعاونة متراحمة ، تَلْهَجُ بالدعاء له ، وتُصْفيه أصدق المحبة ، ويتطامن أشرافها أمامه لا رهبةً منه ، بل احتراماً له ، ولأن إصلاحات الوليد المختلفة فاقت إصلاحات السابقين ، فإذا هو عند طريح صاحب منزلة جليلة رَفَعه الله إليها بتَكَرُّمه وتقواه وحسن عبادته ، وَمَثَلٌ أعلَى للخليفة الصالح الكامل ، وإمام الهدى الفاضل[٢١٠] .

دَعْ عَنْكَ سَلْمَى لِغَيْرِ مَقْلِيَةٍ ... وَعُدَّ مَدْحاً بُيُوتُهُ شُرُدُ[٢١١]

لِلأَفْضَلِ الأَفْضَلِ الخليفَةِ عبـ ... ـدِ اللهِ منْ دُونِ شَأْوِهِ صَعَدُ[٢١٢]

فى وَجْهِهِ النُّورُ يُسْتَبَانُ كما ... لاَحَ سِراجُ النَّهار إذْ يِقدُ[٢١٣]

يَمْضِى عَلَى خَيْرِ ما يَقُولُ ولا ... يُخْلِفُ مِيعادَهُ إذا يَعِدُ

مِنْ مَعْشَرٍ لا يَشُمُّ مَنْ خَذَلوا ... عِزًّا ولا يُسْتَذَلُّ مَنْ رَفَدُوا

بِيضٌ عظَامُ الحُلومِ حَدُّهُمُ ... ماضٍ حُسَامٌ وخَيْرُهُمْ عَتَدُ[٢١٤]

أَنْتَ إمامُ الهُدَى الذَى أَصْلَحَ اللَّـ ... ـهُ بِهِ الناسَ بَعْدَما فَسَدُوا

لَمَّا أَتَى الناسَ أَنَّ مُلْكَهُمُ ... إليكَ قَدْ صَارَ أَمْرُهُ سَجَدوا

واسْتَبْشَرُوا بِالرِّضا تَبَاشُرُهُمْ ... بالخُلْدِ لو قِيلَ إنكمْ خُلُدُ

وَعَجَّ بالحمدِ أَهْلُ أَرْضِكَ حتْـ ... ـتَى كادَ يَهْتَزُّ فَرْحَةً أُحُدُ[٢١٥]

---

(٢٠٩) الأغانى ٤ : ٣٠٦ ، وانظر سمط اللآلى ص : ٧٠٥ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٧٦ .

(٢١٠) الأغانى ٤ : ٣٢٣ .

(٢١١) المقلية : الكره . والشرد : السائرة فى البلاد .

(٢١٢) الصعد : المشقة .

(٢١٣) سراج النهار : الشمس . ويقد : يتلألأ .

(٢١٤) الأبيض : تقى العرض من الدنس والعيوب . وعتد : حَاضِرٌ مُعَدٌّ .

(٢١٥) عج : رفع صوته .

وَاسْتَقْبَلَ الناسُ عيشَةً أُنُفاً ... إنْ تَبْقَ فيها لهمْ فَقَدْ سَعِدُوا(٢١٦)

رُزِقْتَ مِنْ وُدِّهِمْ وطَاعَتِهِمْ ... ما لم يَجِدْهُ بِوَالِدٍ وَلَدُ(٢١٧)

أَثْلَجَهُم مِنْكَ أَنَّهُمْ عَلِمُوا ... أَنَّك فيما وَلِيتَ مُجْتَهِدُ

وأنَّ ما قد صَنَعْتَ مِنْ حَسَنٍ ... مِصْدَاقُ ما كنت مَرَّةً تَعِدُ

أَلَّفْتَ أَهْوَاءَهُمْ فأصبحتِ الـ ... أَضْغانُ سِلْماً ومَاتَت الحِقَدُ

كُنْت أَرَى أنَّ ما وَجَدْتُ من الـ ... ـفَرْحَةِ لم يَلْقَ مِثْلَهُ أَحَدُ

حتى رَأَيْتُ العِبادَ كُلَّهُمُ ... قَدْ وَجَدُوا مِنْ هَوَاكَ ما أَجِدُ

قد طَلَبَ الناسُ ما بَلَغْت فما ... نَالُوا ولا قَارَبُوا وقدْ جَهَدُوا

يَرْفَعُكَ اللهُ بالتَّكَرُّمِ والتَّـ ... ـقْوى فَتَعْلُو وأنت مُقْتَصِدُ

حَسْبُ امرئٍ مِنْ غِنىً تَقَرُّبُهُ ... منكَ وإنْ لم يكنْ لَهُ سَبَدُ(٢١٨)

فأنتَ أَمْنٌ لمن يَخَافُ ولِلْـ ... ـمَظْلُومِ أَوْدَى نَصِيرُهُ عَضُدُ

كلُّ امرئٍ ذى يد تُعَدُّ عليـ ... ـه مِنكَ معلومةٍ يَدٌ ويَدُ

فهمْ مُلوكٌ ما لمْ يَرَوْكَ فإنْ ... دَاناهُمُ مِنْكَ مَنْزِلٌ خَمَدُوا

تَعْرُوهُمُ رِعْدَةٌ لَدَيْكَ كما ... قَفْقَفَ تحتَ الدُّجُنَّةِ الصَّرِدُ(٢١٩)

لا خَوْفَ ظُلْمٍ ولا قِلَى خُلُقٍ ... إلاَّ جَلالاً كَسَاكَهُ الصَّمَدُ

وأنتَ غَمْرُ النَّدى إذا هَبَطَ الـ ... ـزُّوَّارُ أرضاً تحُلُّها حَمِدُوا

فهمْ رِفَاقٌ فَرُفْقَةٌ صَدَرَتْ ... عنكَ بِغُنْمٍ ورُفْقَةٌ تَرِدُ

إنْ حَالَ دَهْرٌ بهم فإنَّكَ لا ... تَنْفَكُّ عن حَالِكَ التى عَهِدُوا

قد صَدَّقَ اللهُ ما دِحِيكَ فما ... فى قَوْلِهِمْ فِرْيَةٌ ولا فَنَدُ(٢٢٠)

تلك أطول قصيدة بقيت من قصائد طريح التى انتصر فيها للوليد . وقد مدحه بقصائد عديدة ضاع معظمها ، ولم يصل إلاَّ أَقَلها . ومما بقى منها قوله من قصيدة قافية يشيد بكرم الوليد الفياض ، وكثرة ما يُقَدِّم للناس من معروف بنفس راضية ، طبعت على بذل النوال ، ويثنى على أهل بيته ،

---

(٢١٦) الأنف : الجديدة .

(٢١٧) وَجَد به وَجْدا : أحبَّه حباً شديداً .

(٢١٨) السبد : الشعر ، ويكنى به عن المال .

(٢١٩) قفقف : ارتعد من البرد . والدجنة من الغيم : المطبق تطبيق الريان المظلم . والصرد : المقرور .

(٢٢٠) الفرية : الكذب . والفند : الخطأ فى الرأى والقول .

فهم مَجْدُ الحياة وسناؤها ، ونعيمها ورخاؤها ، وهم ممن اجتمعت فيهم خصال العروبة النبيلة : إنْ قاتلوا أَذَلّوا أعداءهم ، وإنْ حالفوا أَعزُّوا حلفاءهم ، وإن عاهدوا أَوْفَوْا بعهودهم ، وإنْ قَالُوا فعلوا[٢٢١] :

وما «نَعَمْ» منكَ لِلْعَافِينَ مُسْجَلَةً ... من التَّخَلُّقِ لكنْ شِيَمةٌ خُلُقُ[٢٢٢]
ساهَمْتَ فيها وفى لا فاختَصَصْت بها ... وطارَ قَوْمٌ «بلا» والذَّمِّ فانْطَلَقُوا
قَوْمٌ هُمُ شَرَفُ الدُّنيا وسُؤْدَدُها ... صَفْوٌ عَلى النَّاسِ لم يُخْلَطْ بِهم رَنَقُ
إنْ حارَبُوا وَضَعُوا أوسَالَمُوا رَفَعُوا ... أوعَاقَدُوا ضَمِنُوا أوحَدَّثُوا صَدَقُوا

وقولهَ يعجَبُ من سماحته ووفرة ما يُعْطى للسائلين والمحتاجين فى الضائقات والأزمات ، حتى إنَّ الغزلان لو انقطع عنها القوت ، وجاعت وهامت على وجوهها فى الصحراء تبحث عما تقيم بها أَوَدَها ، لأسرعت نحوه ، يهديها خيره الغامر الذى طارت شهرته فى الآفاق ، وعُبِّدت إليه المسالك والطرق[٢٢٣] :

لَوْ يُرْسِلُ الأَزْلُ الظِّبا ... ءَ تَرُد ليس لَهُنَّ قَائِدْ
لَتَيَمَّمَتْكَ تَدُلُّها ... رَيَّاكَ لِلسُّبُلِ المَوَارِدْ
وإذا الرِّياحُ تَنَكَّرتْ ... نُكْباً هَواجِرُها صَوارِدْ[٢٢٤]
فالنَّاسُ سَائِلَةٌ إليـ ... ـكَ فَصادرٌ تُغْنى وَوَارِدْ[٢٢٥]

وقوله يشيد بحسن تقديره وتدبيره لأمور المسلمين ، ويؤيد مبايعته لولديه بولاية عهده ، فإنهما أهل لها ، وقد رفعها أبوهما إلى المنزلة التى يستحقانها[٢٢٦] :

لا قَصَّرا عنها ولاَ ... بَلَغَتْهُما حَتَّى يَطُولَ على يَدَيْكَ طُوالُها[٢٢٧]

ووفد إلى الوليد من شعراء نجد من القيسيين ابن مَيَّادة المُرِىّ . وكان مداحاً للوليد ، أثيراً عنده[٢٢٨] . وعلى كثرة المتذمرين من الوليد ، والذامين له ، فإن ابن ميادة يعلن كلمة الحق فيه ،

---

(٢٢١) الأغانى ٦ : ١٠١ .
(٢٢٢) مسجلة : مبذولة أو مُرْسَلة .
(٢٢٣) الأغانى ١٥ : ٢٥١ .
(٢٢٤) الأزل : الشدة والضيق .
(٢٢٥) النكب : جمع نكباء ، وهى كل ريح من الرياح الأربع انحرفت ووقعت بين ريحين . وهى تهلك المال وتحبس القطر . والصوارد : الباردة .
(٢٢٦) تاريخ الطبرى ٨ : ٣٦٤ .
(٢٢٧) الطوال : الطويل .
(٢٢٨) الأغانى ٢ : ٢٦٩ .

دونَ وَجلٍ أو مُدَاهَنةٍ ، فهو عنده أوسع الخلفاء معروفاً ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم خبرةً ، وأشهرهم ورعاً وَيُمْناً ، يقول[٢٢٩] :

هَمَمْتُ بقولٍ صَادقٍ أنْ أَقُولَهُ وإنِّى عَلَى رغمِ العداةِ لَقَائِلُهْ
رأيتُ الوليدَ بنَ اليزيد مُبارَكاً شديداً بأعباءِ الخلافةِ كَاهِلُهْ
أَضَاءَ سِراجُ المُلْكِ فَوقَ جَبِينِهِ غَداةَ تَنَاجَى بالنَّجاحِ قَوَابِلُهْ

ويقول دَهِشاً من هبات الوليد النفيسة ، وما منحه له من عطايا كبيرة ، سار ذكرها فى البلدان ، ومادحاً له ولولديه بعد أن أخذ لها البيعة ، فهم عُظَماءُ نَدَرَ أن تجود الدنيا بمثلهم ، وملوكٌ مُتَوَّجُون مشهورون بالرحمة والرأفة والحلم فى السلم ، وبالشدة والحمية والعزم فى الحرب[٢٣٠] :

لمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ نَجْدٍ وسَاكِنِه نَفَحْتَ لِى نَفْحَةً طارَتْ بها العَرَبُ
وأنتَ وابْنَاكَ لم يُوجَدْ لكمْ مَثَلٌ ثلاثةٌ كلُّهُمْ بالتَّاجِ مُعْتَصِبُ
الطَّيِّبونُ إذا طَابَتْ نُفُوسُهُمُ شُوسُ الحَواجِبِ والإبصارِ إنْ غَضِبُوا

ولم يزل ابن ميادة مقيماً عند الوليد بأُيايِر[٢٣١] حتى حَنَّ إلى وطنه ، فعاتبه الوليد ، وقال له : كأنك ضجرت من قربنا ، فقال : ما مثلك يا أمير المؤمنين يُضْجَرُ من قُرْبه ، فأذن له الوليد فى الرحيل ، وأعطاه مائة ناقة . «قال ابن ميادة : فذكرت وِلْداناً لى بنَجد إذا اسْتَطْعَموا الله عز وجل أطعمهم وأنا ، وإذا اسْتَسْقَوْه سَقَاهم وأنا ، وإذا اسْتَكْسَوْه كساهم وأنا . فقال (الوليد) : يا ابن ميادة ، كم وِلْدَانُك ؟ فقلت : سبعة عشر ، منهم عشرة نفر ، وسبع نسوة ، فذكرت ذلك منهم فأخذ بقلبى ، فقال : يا ابن ميادة ، قد أطعمهم الله وأمير المؤمنين ، وسقاهم الله وأمير المؤمنين ، وكساهم الله وأمير المؤمنين ، أما النساء فأربع حُلَلٍ مختلفات الألوان ، وأما الرجال فثلاث حلل مختلفات الألوان ، وأما السَّقْى فلا أرى مائَةِ لِقْحَةٍ إلاَّ سَتْرُويهم ، فإن لم تُرْوِهم زِدْتُهمَ عِيْنَيْن من الحجاز . قلت : يا أمير المؤمنين ، لسنا بأصحاب عيون يأكلنا بها البعوض ، وتأخذنا بها الحُمَّيَات ! قال : فقد أَخْلَفَها الله عليك ؛ كل عام لك فيه مثل ما أعطيتك العام ، مائة لِقْحَةٍ وفَحْلُها ، وجارية بكْرٌ ، وفرسٌ عَتِيق[٢٣٢] » .

---

(٢٢٩) تاريخ الخلفاء ص : ٢٥٢ ، وشرح شواهد المغنى ١ : ١٦٤ ، وخزانة الأدب ١ : ٣٢٨ ، وشرح الشواهد الكبرى ، بهامش خزانة الأدب ١ : ٢١٩ ، وانظر لسان العرب ٤ : ١٨٣ .

(٢٣٠) الأغانى : ٢ : ٣٠٦ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢١٣ .

(٢٣١) منهل بأرض الشام فى جهة الشمال من أرض حوران ، كان الوليد يخرج إليه فى أيام الربيع للنزهة .

(٢٣٢) الأغانى ٢ : ٣١٠ .

وقدم إلى الوليد من شعراء اليمامة من موالى الأمويين مروان بن أبى حفصة[٢٣٣] . ولم يصل من قصيدته الدالية التى مدح بها الوليد حين دخل عليه هو وطريح بن إسماعيل الثقفى ، والحسين بن مطير الأسدى فى جماعة من الشعراء[٢٣٤] إلاَّ بيتان يُفَخِّم فيهما شمائل الوليد العربية المجيدة من النخوة والشرف والمنعة ، وما شاع فى زمنه من الدعة والخير ، يقول[٢٣٥] :

إنَّ بِالشَّام بِالمُوَقَّر عِزًّا ومُلوكاً مُباركين شُهُودَا
سادةً من بنى يزيدَ كِرَاماً سَبَقُوا الناسَ مَكْرُماتٍ وجُودا

وأَمَّ الوليد من شعراء البصرة من المضريين أبو نخيلة التيمى . ومدحه بأرجوزة لم يبق منها غير ثلاثة أبيات ، أشاد فيها بنسب الوليد الأموى الثقفى ، وهنأه بالخلافة ، يقول[٢٣٦] :

بَيْنَ أبى العَاصِى وبَين الحَجَّاجْ يالَهُما نُورا سِراجٍ وَهَّاجْ
عليهِ بعدَ عَمِّهِ عُقِدَ التَّاجْ

وأَمَّهَ منهم رؤبة بن العجاج التيمى ، وفى الوليد يقول مُمَجِّدًا مكانته ، فهو من أسرة عريقة تعاقب أبناؤها على الحكم سيداً بعد سيد ، وزكاه للخلافة شرف أجداده الجاهلى الخالد ، وشرف آبائِهِ الإسلامى المتصاعد . وهو على خلق كريم ، لا يبارى فى أريحيته ، إذ يغدق على سائليه أكبر العطايا فى أوقات العسر والشدة ، ومُنَوِّهاً بعامله على العراق يوسف بن عمر الثقفى لعنايته بأمور ولايته ، وسياسته لرعيته سياسة عادلة صارمة ، فهو يَرْفقُ بالطائعين المسالمين ، وَيَمْحَقَ المخالفين المُكَابرين[٢٣٧] :

خَلِيفَةٌ آباؤُهُ خَلائِفُ لهُ إذا عُدَّ القَديمُ الآثِفُ[٢٣٨]
مجدُ القديم والجزيلُ الرَّادِفُ وسالِفٌ مُرْتَفِعٌ وسَالِفُ
ومِنْ بَنى مروان عِزٌّ شَارِفُ رَاسٍ إذا ما اهْتَزَّتِ الرَّواجِفُ
ومَنْحُ كَفَّيْكَ رَبِيعٌ وَاكِفُ جُودٌ إذا ما أَخْلَفَ المُخَالِفُ[٢٣٩]
غَيْثٌ إذا ما اغْبَرَّتِ العَواصِفُ يُفْرِغُ فى بَحْرِكَ بَحْرٌ قَاصِفُ

---

(٢٣٣) الشعر والشعراء ص : ٧٦٣ ، وطبقات ابن المعتز ص : ٤٢ ، والأغانى ١٠ : ٧١ .
(٢٣٤) الأغانى ٦ : ٧١ ، ١٦ : ١٧ .
(٢٣٥) شعره ص : ٣٣ .
(٢٣٦) أنساب الأشراف ، مصورة الجامعة الأردنية ، المجلد الثانى ص : ٣١٠ ، والأغانى ٧ : ١ .
(٢٣٧) مجموع أشعار العرب ص : ١٠٣ .
(٢٣٨) الآثف : القديم الراسخ .
(٢٣٩) الواكف : المتتابع .

مَدٌّ ومِنْ بحرِكَ يُسْقَى الغَارِفُ ... ريًّا وبعض المُسْتَقَى مَرَاشِفُ[٢٤٠]
يا ابنَ اليَزِيد بْن اليزيد الطَّارِفُ ... من الرَّدَى والكاملُ الخُنَادِفُ[٢٤١]
وبالعراقَيْنِ لمن يُخالِفُ ... ذُو مِرَّةٍ أَنْيَابُهُ صَوارِفُ[٢٤٢]
يوسُف والعائِفُ ضَيْماً عائفُ ... بالمُحْسِنِينَ مُحْسِنٌ مُلاَطِفُ
وهو لمن شَائسَ سُمٌّ ذَائِفُ ... وقاصِدٌ إنْ قَصَدوا مُنْاصِفُ[٢٤٣]

وتظهر الأشعار التى قيلت فى مديح الوليد بن يزيد والانتصار لخلافته وسياسته ، وتفخيم شخصيته ثلاثة أمور : الأول أن أغلب الشعراء الذين تحلقوا عليه ، وتسابقوا فى مساندته هم من القرشيين ومواليهم ، ومن الثقفيين ومواليهم ، ومن القبائل القيسية الأخرى ، ومن تميم . أما أقلهم فمن اليمنية . ومصدر ذلك أن الوليد كان يميل إلى القيسية ، لأنهم أخواله ، فكان أكثر عماله وموظفى قصره منهم ، فاتسع نفوذ قيس فى عهده ، وقويت سلطة ثقيف خاصة ، فكان منها معظم وُلاَتِهِ على الأمصار ، وكان منها أكبر موظفى الدواوين الهامة فى دمشق[٢٤٤] . وكان لسادتها تأثير فى رسم سياسته وتوجيهها ، إذ كان طريح بن إسماعيل الثقفى ملازماً له بدمشق ، مستبداً به ، وفى ذلك يقول المدائنى : «كان الوليد بن يزيد يُكْرِمُ طريحاً ، وكانت له منزلة قريبة ومكانة ، وكان يُدْنى مجلسه ، وجعله أَوَّلَ داخلٍ وآخر خارج ، ولم يكن يصدر إلا عن رأيه[٢٤٥] » . ولذلك أسهب طريح أكثر من غيره من الشعراء فى مديح الوليد ، واستنفد شعره فى الثناء عليه ، واجتهد فى الذَّبِّ عنه ، وجَدَّ فى تأييد سياسته والترويج لها ، والكشف عن محاسنها ومزاياها .

وأما الأمر الثانى فهو بَساطةُ شخصية الوليد ويسرها وصفاؤها ونُبْلها ، وتَأَصُّل الخير فى نفسه ، وسماحته وأريحيته ، وتَهَلُّله للوافدين عليه ، والسائلين له ، وبَذْلِه لهم أَسْنَى الجوائز والصلات ، وعنايته برعيته ، وصدقه فى مواساة الفقراء والبؤساء .

وأما الأمر الثالث فهو تَدَيُّنُ الوليد واستقامته واعتداله ، واهتمامه بالإسلام . وسعيه إلى المحافظة عليه ، ويبدو أن اتهام هشام له بالكفر والمجون هو الذى بعث الشعراء على الدفاع عنه ، وحرَّكهم

---

(٢٤٠) مراشف : قليل لا يروى .
(٢٤١) الخنادف : من الخندفة وهى الهرولة والإسراع فى المشى .
(٢٤٢) صوارف : حادة قاطعة .
(٢٤٣) ذائف : ناقع قاتل .
(٢٤٤) تاريخ خليفة بن خياط ٢ : ٥٥٢ – ٥٥٥ .
(٢٤٥) الأغانى ٤ : ٣١٢ .

لِنَقْض ما رُمِيَ به ، فأسبغوا عليه صفات الورع والتقوى والصلاح ، ورَكَّزوا عليها فى مديحهم له ، وأكدوها ليزيلوا ما علق به من الشُّبُهات ويَمْحُوهَا مَحْواً .

والأشعار التى قيلت فى مديح الوليد بالغة الأهمية والدلالة ، لأنها شواهد حَيَّة معاصرة لخلافة الوليد ، ولأنها ترسم له صورة مخالفة للصورة التى رسمها له أكثر الإخباريين والمؤرخين المتحيزين . فالأشعار التى مُدِحَ بها تَقْطَعُ بسلامة شخصيته وبراءتها من الانحراف والانحلال ، وتُوَضِّح اهتمامه بشئون الأمة والدولة . ويُوثِّقُ دلالات تلك الأشعار ، وما تبرزه من حقائق ما بقى من أخبارٍ قليلةٍ صحيحة رواها المدائنى[٢٤٦] تشير إلى استقامة شخصية الوليد وسياسته . وإلى المنافع التى أحرزها الناس فى خلافته .

---

(٢٤٦) تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ .